سيد قطب

المدينة المسحورة

(رواية)

١٩٤٦م

إلى روح سيّد قطب ..

محمد - مدينة القذارة !

2006/06/10

... فلما كانت الليلة الثالثة بعد الألف أرق الملك شهريار أرقاً طويلاً تجاوز به منتصف الليل، وأوفى به على الهزيع الأخير، وضاق صدره بهذا الأرق الذي لايجد منه مهرباً، ولايعرف له نهاية.

ولم تكن هذه هي الليلة الأولى التي يأرق فيها الملك، ويضيق صدره بالليل والأرق فمنذ ثلاث ليال لم يذق النعاس إلا غراراً، ولم يزره النوم إلا في مطلع الفجر، بعد يُنهكه السهر، فيهمد ويسترخي وينام.

لقد مرت تسع وتسعون ليلةَ منذ أن سمع من شهر زاد آخر أقاصيصها، ومنذ أن أحس أنه قد ملّ هذه الأقاصيص التي عاش فيها ألف ليلة وليلةَ في جو مسحور، يهيم فيها خياله مع المردة والشياطين، وتسبح فيها نفسه مع السواحر والجنّان، وتتعلق فيها أنفاسه بمصائر العشاق والعاشقات، ولايكاد يهبط إلى الأرض حتى يحلق في السماء، ولايكاد حسه يستقر حتى يضطرب من جديد!

لقد أحس أن شهر زاد قد تجاوزت به المدى في هذه الحياة الخيالية، وبعدت به طويلاً عن الحياة الحقيقية، وأحس بشوق إلى الحياة في الأرض، والعودة إلى الواقع. كان قد عاش طويلاً في الأحلام مغمض العينين، يسبح مع شهر زاد الساحرة في عالم الأوهام، فأراد أن يفتح عينيه، ويرى الأشياء كما تبدو للأيقاظ في وضح النهار.

عودة شهر زاد

... فلما كانت الليلة المائة بعد الألف أرق الملك شهريار أرقاً طويلاً تجاوز به منتصف الليل، وأوفى به على الهزيع الأخير. وضاق صدره بهذا الأرق الذي لايجد منه مهرباً، ولايعرف له نهاية.

ولم تكن هذه هي الليلة الأولى التي يأرق فيها الملك، ويضيق صدره بالليل والأرق فمنذ ثلاث ليال لم يذق النعاس إلا غراراً، ولم يزره النوم إلا في مطلع الفجر، بعد ينهكه السهر، فيمهد ويسترخي وينام.

لقد مرت تسع وتسعون ليلة منذ أن سمع من شهر زاد آخر أقاصيصها، ومنذ أن أحس أنه قد مل هذه الأقاصيص التي عاش فيها ألف ليلة وليلة في جو مسحور، يهيم فيها خياله مع المردة والشياطين، وتسبح فيها نفسه مع السواحر والجنّان، وتتعلق فيها أنفاسه بمصائر العشاق والعاشقات، ولايكاد يهبط إلى الأرض حتى يحلق في السماء، ولايكاد حسه يستقر حتى يضطرب من جديد!

لقد أحس أن شهر زاد قد تجاوزت به المدى في هذه الحياة الخيالية، وبعدت به طويلاً عن الحياة الحقيقية، وأحس بشوق إلى الحياة في الأرض، والعودة إلى الواقع. كان قد عاش طويلاً في الأحلام مغمض العينين، يسبح مع شهر زاد الساحرة في عالم الأوهام، فأراد أن يفتح عينيه، ويرى الأشياء كما تبدو للأيقاظ في وضح النهار.

وماكادت شهر زاد تختم قصتها الأخيرة في الليلة الواحدة بعد الألف حتى شعرت أن الملك قد سئم، وأنه لن يستمع إليها من جديد، فلم تنتظر حتى يشير عليها بالصمت، أو يهرب من جناح القصر الذي فيه يجتمعان. فقالت في نهاية القصة الأخيرة: "والآن يامولاي أحسبني في حل من استئذان الملك في أن أعفيه ولو لبضع

ليال من هذه الأحاديث الطوال، وأن أنصرف بعض الشيء إلى أطفالنا الثلاثة، فأنظر في الإشراف على نشأتهم لينشأوا لائقين بوالدهم العظيم. فأنا يامولاي لاأستطيع أن اعتمد إلى ماشاء الله على إشراف المربيات ورجال الحاشية، مهما بلغن ومهما بلغوا من الإخلاص ومن الخبرة بشئون التربية والتقويم، فإن إشراف الأم لايعدله إشراف، وإدراك الأم لحاجات طفلها وضرورياته قائم على حاسبة خفية في نفسها لاتتوفر لأي إنسان، وإن الطفل ليجد عندها بحسه الفطري مالايجد عند سواها كائناً من كان... فإذا أذن الملك فسأكون منذ الليلة القادمة في جناحي الخاص."

ومن كان الملك في حاجة إلى كل هذا البيان، ولكنه ارتاح إليه ارتياحاً شديداً. فلقد كان في حيرة: كيف يستطيع أن يشير على شهر زاد بالصمت منذ الليلة القادمة، وكيف يشير عليها أن تجنح إلى جناحها الخاص منذ الغد، بعد ماستمع إليها ألف ليلة وليلة في شغف وإقبال في أول الأمر، وفي تراخ يتزايد في أخريات الليالي!

لقد كان يعز عليه أن يجرح كبرياءها، وأن يجابهها بالملل والنفور بعد ماستلذ أحاديثها ثلاثة أعوام، وخرج بهذه الأحاديث من حال إلى حال، واستحال من سفاك متعطش للدماء إلى إنسان وديع هادي الطباع. ولم يكن الذنب ذنب شهر زاد في ملله الأحاديث، فهي لم تقصر في انتقائها وتصفيتها، ولكنه ذنب النفس الإنسانية التي تسأم تشابه الأحوال.

كان الملك يدير مثل هذه الأحاديث في نفسه حينما أدركت شهر زاد بغريزتها الفطنة أن الانسحاب هو أنسب التصرفات. فلما سمع الملك استئذانها أحس في نفسه بارتياح لذيذ، وتوارى الملل الذي كان يستشعره، وكبرت في نفسه شهر زاد من جديد. ولكنه أذن لها فيما تريد، لأنه لن يصبر بعد اليوم على هذه الأحاديث.

فلما كانت الليلة التالية وجد نفسه وحيداً في جناحه الخاص فأحس بارتياح شديد لهذه الوحدة المحبوبة.

ومرت الأيام...

***

ولكنه منذ ثلاث ليال عاوده الأرق، فماه ينام إلا في مطلع الفجـــر بعـــد التعـــب والهمود. أما في هذه الليلة الأخيرة، فقد أوشك الـــصبح، والأرق يلاحقـــه كالمطـــارد اللئيم. إن صدره ضيق ضيق، وأنه ليحس هذا الضيق يستحيل شيئاً مادياً محـــسوساً، يقبض عنقه ويزم صدره فيكتم أنفاسه، ويحس له بثقل شديد.

ماذا؟

لقد عاش في الأرض تسعاً وتسعين ليلة. عاش في الواقع المحسوس الذي كـــان قد شاقه فتشهاه. عاش في العالم المنظور بحواسه وذهنه بعيداً عن العـــالم المـــسحور الذي خلقته شهر زاد.

ولكنه يدرك الآن: كم يفقد الإنسان حينما يفقد الأحلام!

إن هذا العامل ضيق ضيق، تافه تافه، صغير صغير.إن ماتبلغه الحواس لهو أمد قصير، وإن مايبلغه الوعي لهو أفق قريب. وإن الخيال والأحلام ليبلغان بهذا المخلوق الإنساني المحدود أبعد الآماد وأوسع الحدود.

ألا ماأشقى الإنسان الذي لايملك من هذا العالم إلا ماتبصره عيناه!

لقد جالت هذه الخواطر في نفس الملك منذ ليال، فأحس عندها بالشوق إلى شهر زاد، والحنين إلى أحاديثها الحلوة الشهية التي كانت تطير به من عـــالم إلـــى عـــالم، وتتجاوز به الحدود والقيود، وتطلقه من جميع الحواجز، وتمزج له الواقـــع بالخيـــال، وتجمع بين الأرض والسماء، والبر والبحر، والأطباق والأجواء، والإنـــس والجـــن، والأموات والأحياء.

أحس بهذا كله منذ ليال، وأحس باللهفة إلى لقاء شهر زاد وراوده نفسه أن يتسلل إلى جناحها الخاص في غفلة من الرقباء والحراس، ولكن كبرياءه صدته ليلة بعد ليلة أن يذهب إلى شهر زاد!

أما في هذه الليلة الأخيرة، فقد أضجره الأرق وبرّج به الضيق، وأجدّ له الشوق إلى شهر زاد منطقاً جديداً:

قيم الكبرياء؟ وماذا يجرحها! أنه لم يصرح لشهر زاد بملله وسآمته، وهي التي استأذنته في أن تعتزل جناحه فأذن؟ وإنه ليكون تطلقاً منه أن يذهب إلى جناحها الخاص!

– ولكن أليست هي التي اعتزلتني، وانصرفت عن تحديثي، فكيف أبدأ أنا الآن بالعودة إلى ماكان؟

– بلى! هي التي اعتزلتك. ولكن ألم تكن أنت راغباً في هذه العزلة؟ ألم تكن شبعت من هذه الأحاديث؟ ألم تكن في حيرة من أمرك كيف تصدها عنها وتنأى بها عنك؟

وفيما هو يجادل نفسه وتجادله، كان قدت جاوز جناحه الملكي في الطريق إلى جناح الملكة. وتنبه الحارس الخاص فأدى التحية، فأشار إليه بالصمت، ومضى إلى جناح الملكة الخاص.

ولما كان على باب المخدع أدكته حيرة مفاجئة: ماذا يقول الآن لشهر زاد؟ ماحجته في هذه الزيارة الغريبة في مطلع الفجر بعد تسع وتسعين ليلة؟

وكاد يهم بالرجوع، ولم يدر أنه لفرط حيرته قد رفع صوته قليلاً وهو يحاور نفسه وتحاوره، حتى أحست به شهر زاد. لقد سمعته يتمتم، ورأته يتأخر ويتقدم.

فأدركت بغريزتها اليقظة حقيقة موقفه، وخافت أن يفلت منها الزمام، فنهضت جالسة في السرير، ورفعت مفتاح النور، فتلألأ القنديل، وقالت تتصنع الدهشة:

– من؟ مولاي!

وعندئذ لم يجد بداً من الإقدام، فأجاب في اضطراب يخفيه:

– أي نعم! معذرة في إقلاقك ياشهر زاد!

قالت:

– بل الشكر للملك. لقد جاء في اللحظة المناسبة. لقد كنت أحلم حلماً مخيفاً، وكأنما أحسسته يامولاي بما أنا فيه من الضيق، فحضرت اللحظة للإنقاذ.

وافتر ثغرها عن ابتسامة مشرقة. فوجد شهر يار الطريق أمامه مفتوحاً، وقد أوجت له المنفذ المناسب شهر زاد!

قال: لقد شعرت بانقباض شديد، وخالجني إحساس غامض بأن أحضر إلى مخدعك في هذه اللحظة بالذات!

انتفضت شهر زاد من الفراش، وهي تثني فيبدو قوامها الفاتن، وتلقي برأسها إلى الوراء لترد شعرها الجميل، ومدت يدها إلى الملك مصافحة، وقادته إلى معقد مريح، وجلست بجواره، ويده بين يديها في دلال.

وأنس شهر يار لاستقبالها الفاتن، وأحس أن مايزعمه من الكبرياء الجريحة وهم سخيف. فها هو ذا بين يدي شهر زاده الساحرة، وقلبها من قلبه قريب؛ فليدع هذه الحواجز الوهمية بينه وبينها، فليس بين الرجل والمرأة ــ حين يخلون ــ ذلك الحجاز المتوهم من الكبرياء أو غير الكبرياء!

قالت شهر زاد ــ تستدرجه للحديث:

– كأني بل مؤرق يامولاي؟

قال ــ وقد عاودته الكبرياء:

– كلا! وماذا يدعوك إلى هذا الظن الآن؟

قالت متلطفة:

– أرى علائمه على وجهك يا شهريار. فماذا هناك؟ إنني إمرأتك، فما يــدعوك إلى الكتمان؟

قال الملك ــ وقد أسره تلطفها الودود:

– الحق أنني مؤرق منذ ثلاث ليال.

وسكت؛ فنظرت إليه شهر زاد مستزيدة، وقالت لتفتح له الحديث:

– ولماذا لم تستدعني إليك منذ الليلة الأولى، لنقاوم معاً هذا الوافد الثقيل؟

قال:

– لقد أشفقت عليك أن أؤرقك معي وأنت منصرفة على رعاية أطفالنا الصغار!

قالت شهر زاد:

– أطفالنا؟ إنما أطفالنا ونحن جميعاً بل أيها الملك... فماذا هناك؟

تنهد شهر يار كأنما يزيح عن صدره ثقلاً وقال:

– أرأيت ياشهر زاد إلى أحاديثك الجميلة ألف ليلة وليلة! أين تراها الآن؟ لقد كانت تنقلنا على جناح الخيال إلى عوالم وآباد لامثيل لها فيما نحسه أو نراه. إن العالم المحسوس عالم ضيق ياشهر زاد. بل عالم جاف مشوه قبيح. إن الحياة بلا خيال نوع من التحجر، والعيش بلا أحلام حيوانية بليدة... أو لازالت تملكين ياشهر زاد أن تردينا إلى العوالم المسحورة، وإلى الأكوان الحالمة، وإلى الآفاق الوضيئة، التي عشنا فيها ثلاثة أعوام؟

قالت شهر زاد في تخابث ودلال:

– أخشى أن يكون هذا الحديث تلطفاً من الملك مع مولاته شهر زاد، أراد أن يشعرها به أنه لم يأذن لها في الاعتزال عن ملل!

قال شهر يار في حماسة:

–كلا كلا ياشهر زاد. أؤكد لك أنها رغبة حقيقية. لقد ضقت بهذا العالم المحسوس. لقد شعرت بالغربة فيه بعد أن فارقته ألف ليلة وليلة، ونسيت ضيقه وتحجره؛ حتى إذا عدت إليه ألفيته كما تركته قبل أحاديثك الجميلة. إنه مزعج. إنه رديء. إنه نوع من الموت في أثناء الحياة!

قالت شهر زاد: وقد اطمأنت إلى مكانها، وانتقمت لكبريائها: ـ الحق ـ أيها الملك ـ لقد كنت أقدر ذلك كله. كنت أعلم من اعتاد الحياة في جو الأحلام الوضيئة والخيال الطليق والعوالم الفسيحة، عزيز أن يقص أجنحته، ويقبع في هذا العالم الضيق الذي يدعونه عالم الحقيقة والواقع. والحقيقة والواقع مظلومات يامولاي. فالحقيقة الكبرى لن تحدها نظرة جيل، والواقع الأصيل لن يصره إدراك فرد... إن الحقيقة أعلى بكثير وأكبر بكثير من كل مايتصوره فرد أو جيل؛ وإن الواقع لأعمق بكثير وأفسح بكثير مما تحده الأبصار والحواس؛ وإن مايسميه أبناء الفناء بالواقع والحقيقة

إن هو إلا طرف صغير ضئيل من الواقع ومن الحقيقة؛ وإنهم لـــن يـــستطيعوا إدراك ماهو أكثر وأكبر ماداموا يثقون في حواسهم هذه الثقة العجينة، وينخدعون بأذهـــانهم هذا الانخداع المريب؛ وإنهم لن يصلوا إلى شيء إلا بالوجدان والخيال والأحلام. هذه هي الأشعة السحرية التي تكشف الآباد والآفاق؛ وتنير للإنسانية فترى على ضـــوئها مالاتدركه عقولها، ومالا تبلغه خطواتها، ولكنها تتزود منه باللمحة والنظرة؛ وتهـــدف في شوقها إليه نحو الحقيقة والخلود.

... كان الملك يسمع هذه التسجيلات من شهر زاد، وهو مأخوذ مشدوه، كأنمـــا يستمع إلى هاتف من الغيب وراء الأستار. فلما سكتت تنبه كما يتنبه الحالم وقال:

– والآن ياشهر زاد، هيا بنا إلى عالم الحقيقة الكبرى. عالم الأحلام والخيال!

قالت شهر زاد:

لقد دخلت يامولاي لهذه الليلة أجمل قصصي وأروعها؛ فلقد كنت واثقـــة، كمـــا قلت، من عودة الليالي، ووصل مانقطع بعد أمد قـــصير أو طويـــل. ولكـــن انظـــر (وكشفت بيدها الستار عن النافذة فبدت تباشير الصباح): "لقد أدرك شهر زاد الصباح" فأتم الملك بأسماء: "فسكت عن الكلام المباح"!

قالت:

إن الصباح يبدد الأحلام، وإن الضجة تفزع الأطياف، وإن موعدنا لهـــو الليـــل الهادئ، حيث يضرب الظلام على العين والنظر فتتفتح البـــصيرة، ويـــسبح الخيـــال، وحيث تتوارى الضجة وتخفت الحركة، فتدب الأطياف وتسري الأحلام.

قال شهر يار:

إنك لما كرة وأنك لسحارة. وإنك لفاتنة بهذا وذاك! والآن فإلى اللقـــاء، حينمـــا يضفي، وتسرح الأحلام.

قال شهر زاد:

إلى اللقاء....

المدينة المسحورة

فلما كانت الليلة الواحدة بعد المائة قالت شهر زاد:

بلغني أيها الملك السعيد أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، مدينة عظيمة في مصر القديمة، يتبعها إقليم بين الوادي والصحراء يحكمه الملك "نفريت"

وكان لهذه المدينة أسوار عالية تحميها من الأعداء، وكان لهذه الأسوار أبواب ضخمة يقوم عليها الحراس الشداد؛ وهذه الأبواب تفتح نهاراً عند مطلع الشمس، وتغلق ليلاً عند غروبها، فيمتنع الدخول والخروج إلا لمن يحمل كلمة السر من الحكام والحراس.

وكان على مقربة من المدينة غابة فسيحة كثيفة عالية بالأشجار، وكانت المراعي تتخلل فجواتها الكثيرة، فيدخل الرعاة بأغنامهم في فجوات الغابة، لترعى الحشائش النباتية فيها، كما كانت بعض الذئاب تأوي إليها وبعض الضباع، تتلقف الحملان الضالة التي تتناثر من القطيع. وكانت الأرانب البرية والثعالب والضباء تتكاثر فيها وتنمو، فيخرج الصيادون لصيدها في مواسم من السنة، بعضهم يتخذها لكسب والتجارة، وبعضهم يتخذها للهو والتسلية.

وعلى خفافي الغابة كانت تتناثر بضعة أكواخ وحظائر للرعاة والصيادين الفقراء، يأوون إليها بأنفسهم وأغنامهم، حين يدخل الظلام، ويصبح التجوال في الغابة خطراً بين الذئاب الجائعة والضباع الهاجمة؛ وكثيراً ماكانوا يوقدون أمام أكواخهم ناراً تشتغل طوال الليل تخويفاً لهذه الحيوانات من السطو على الحظائر في جنح الظلام.

وكان للملك في وسط المدينة قصر عظيم يتألف من أجنحة كثيرة، وتتبعه أقسام للحراس والاصطبلات، وأمامه ساحة فسيحة يتدرب فيها الجند، وتقام فيها الاستعراضات العسكرية والحفلات الملكية، وتتسع لعدد كبير من الناس. وعلى الجانب الآخر من الساحة يقوم قصر أصغر من قصر الملك هو قصر أخيه.

ولم يكن يعكر صفو الملك إلا حرمانه من وريث لعرشه، إذ كانت امرأته لاتلد، وقد بلغت الأربعين وبلغ الملك الخمسين دون أن يكون لها بنت أو غلام، فكان المنتظر أن يئول العرش بعده إلى أخيه إذا أمهله الموت، أو إلى أحد الأجانب، إذ أن أخاه مثله محروم من الأطفال.

وقد جعل الملك جائزة عظيمة لمن يكون سبباً في دفع العقم عن زوجته وزوجة أخيه. ولكن جميع محاولات الأطباء والكهان ذهبت أدراج الرياح، فلم يبق أمام الملك وأخيه إلا أن يتزوجها من جديد. وفيما هما يفكران هذا التفكير، والمرأتان في غم وضيق، وأهل الملكة جميعاً في اشتغال بهذا الأمر الخطير، هبط المدينة طبيب من الشمال، سمع بالغابة ونباتاتها، فقدم ليجمع منها بعض النباتات الطبية. ولما دخل المدينة وجد أهلها مهمومين مغمومين، لأن الملك وشقيقه سيتخذان زوجتين بدل زوجتيهما المحبوبتين من الشعب كله لطيبتهما وعطفهما على المساكين، فعرض ذلك الطبيب الشمالي استعداده لمداواة العقم، ففرح الناس وتوجهوا إلى الإله بالدعاء.

واستجاب الله دعاء الشعب فحملت الزوجتان في ليلة واحدة بعد طول العقم والحرمان. ولما وفتا الأيام وضعت زوجة الملك طفلاً ذكراً، وزوجة أخيه وضعت أنثى، فأقام الملك الأفراح في طول المملكة وعرضها، وأطعم الفقراء والجياع، ولبست المدينة حلة زاهية من الزينة أربعين ليلة كاملة.

وقد سمي المولود "تاسو" وسميت المولودة "تيتي" واتفق الملك وشقيقة أن تكون تيتي لتاسو، ويكون الملك لذريتها جيلاً بعد جيل.

مرت السنوات والطفلان ينموان حتى بلغت سنهما العشرين واعتزم الوالدان أن يفرحا بهما في حياتهما، وأن يشهدا زواجهما فأعدا العدة لإقامة الأفراح، وذهبت الرسل لاستحضار المغنين والملهين من أطراف المملكة، ليكون هذا العرس عيداً جميلاً يفرح به الشعب كله، ويظل مذكوراً على الأيام.

ولكن إرادة الله كانت غالبة، فاحتاج البلاد مرض وبائي وافد، ذهب ضحيته الملك وشقيقه وزجتاهما ضمن ألوف أخرى كثيرة من السكان. فلبس الناس الحداد على موتاهم، واغتم تاسو تيتي لفقد والديهما، وأصيب الشاب بالمرض، ولكنه نجا، فقام منه منهوكاً مهدوداً.

ويغير احتفالات ولازينات تولي الملك مكان أبيه، وجعل همه مقاومة الوباء الطارئ بجميع الوسائل، وتمكن بعد مضي عامين من القضاء عليه، وإراحة الناس منه، فارتفعت أكف الناس بالدعاء له، وزادوا تعلقاً به.

ولما أطمأنت القلوب وهدأت الأحوال قال مشير الملك الراحل للملك الشباب: "يامولاي. لقد من الإله عليك بالشفاء من المرض الذي حصد الأرواح؛ وقد ابتهج أهل المملكة بنجاتك، فيحسن أن يتم الابتهاج بعقد القران، حتى يرزقك الله بولي عهد تقربه عينك، كما أقر الإله بك عيني والدك الراحل فوجدناك عند ارتحاله ذخراً لنا وسنداً؛ وأنت تعلم يامولاي أو والدك العظيم كان يحضّر للعرس لولا هذا الوباء المشئوم" فرد عليه الملك الشباب مستحسناً فكرته وأشار بالتهيؤ لإقامة الأفراح والاحتفالات على النحو الذي أمر به والده، لتقر عينه في قبره بتنفيذ رغباته، بعد أسبوع من الزمان.

ولما سمعت تيتي بهذا النبأ طار قلبها فرحاً، فقد كانت مشغوفة بابن عمها حباً، ولكن الحياء كان يمنعها من إظهار هذا الحب الذي يملك عليها تفكيرها.

لقد مر هذان العامان كما تمر القرون والأجيال. وكانت قد نـضجت أنوثتهـا، وتفتحت رغباتها، فكانت تحلم بذلك اليوم السعيد الذي تتحقق فيه أمانيها التي عاشـت في نفسها منذ أن تنبهت لوجودها، وعلمت أنها خطيبة لـولي العهـد وابـن عمهـا المحبوب.

كانت حياتها كلها وأحلامها جميعاً تتلخص في هذه الرغبة التي تنمو يوماً بعـد يوم، كلما شاهدت خطيبها الشاب تكتمل رجولته، وتبدو عليه مظاهر الفتوة وأمـارات القوة؛ فلما بلغه النبأ كادت تجن من الفرح، ولكنها خجلت فتوردت وجنتاها وانهمرت من غينها الدموع. أما الأمير فلم يكن ميله إليها إلا بمقدار الألفة التي تنمو بين طفلين خطيبين.

باتت الأميرة ليلتها لم تذق للنوم طعماً. لقد كانت عشرات الـصور والمـشاهدة تتوالى على حسها وهي في شبه غيبوبة لذيذة، وكانت تفتح عينيها فلا ترى شيئاً. لقـد كانت مشغولة باستعراض الرؤى الجميلة التي تنبع من نفسها وتزدحم في خيالها كانت تحس بأشتات من الأحاسيس الغريبة التي لاتدرك لها تفسيراً ولا تعرف عنها تعبيراًن فتدعها تمر على حسها متتابعة متمازجة، وهي كالمخدورة بين الأحلام اللذيذة.

وأصبح الصباح فوجد الملك الشباب في نفسه ميلاً إلى التجوال في الغابة كـأن هاتفاً يدعوه إليها، فأمر بإعداد العدة للصيد، وخرج من الحراس ورجال الحاشـية — على عادته حينما يعتزم هذه الرياضة المحبوبة.

كان الربيع قد وافى، فاكتست الأشجار بالأوراق الخضراء وازدهـرت أعاليهـا وأطرافها بالنور المختلف الألوان، وسمعت أصوات اليمام فيها والطيور المغردة على اختلافها، وانطلقت الأرانب البرية والغزلان تقفز وتمرح، وقـد اكتـست أجـسامها بالشعر الجديد الزاهي، وبان في وثباتها المرح الداخلي النشيط.

وكان الملك الشاب يحس في نفسه شوقاً غامضاً مجهولاً، وحنيناً تائهاً عجيباً، تنطق به كل ذرة في دمائه، وكل خالجة في شعوره. كان يتململ في جلسته على ظهر حصانة، فيغادره ويقفز ليسير على أقدامه، يمسك بأطراف الأشجار المتدلية، ويغرس طرف رمحه في جذوع الأشجار، ويقطف بعض الأزهار ليتأملها برهة ثم يقذف بها على مد الذراع؛ ثم يعود إلى صهوة جواده، وقد شعر بشيء من الراحة لتصريف هذا المذعور في بنيته من القوة والمراح.

وللقدر المقدور وقع نظره وهو في هذه الحالة على فتاة ترعى بضع شياه.

لقد بهت كأنما سمر في مكانه. كانت فتاة ممشوقة القوام ناضرة الوجه، في عينها كل معاني الربيع. كل شيء فيها متفتح كالوردة الناضجة صدرها الناهد، ونظراتها الجاهرة، وبشرتها المملوحة، ومشيتها المتوثبة، ولفتاتها السريعة.. أحس الشاب أنه هذه الفتاة هي إحدى ظبيات الغابة أيقضها تفتح الربيع، وأنضجتها حرارته وانفلتت من كيانها تبعثر ماتجمع في كيانها من رصيد الحياة المذخور، فوقف إزاءها سماها مدهوشاً مأخوذاً. وأحست الفتاة أن نظرات الفارس الجميل تقع على كل موضع فيها، وتنفذ في ثنايها ، أفرخت أجفانها من الحياء، وتفترت مفاصلها، ودرب فيها حذر لذيذ.

لمتكن الفتاة تعلم أن الفارس الجميل الذي يلقي عليها هذه الوابل من النظرات النفاذة هو ملك الإقليم. فقد كان من عادته أن يتزيا ــ حين يقصد إلى الصيد ــ بزي فارس من الحرس حتى يكون طليقاً في رياضته، وحتى يتخفف من شارات الملك وتقاليد البلاط. لقد كان بطبعه ينفر من هذه القيود التي تثقل كاهله، وتحدد من نشاطه وهو في فورة الشباب الوثاب، فما أنتعرض له فرصة من هذه الفرص حتى يلقي عن نفسه هذه المراسم والطقوس، فيحس أنه خلص من رقبتها، وصار إنساناً له كل حقوق الإنسان. وكان يحرم على مرافقيه من رجال الحاشية مادام في هذه الرياضة المحبوبة

أن يخاطبوه بمراسم الملك لأن هذا كان يرده إلى أثقال المراسم، ويذكره بضيق القيود التي خرج يتخفف منها ويفرج على نفسه من ضيقها!

فلما وقف أمام الفتاة مبهوتاً مأخوذاً، وطال هذا الوقت حتى لحظة مرافقوه، تذكر نفسه ومركزه ــ على الرغم من تنكره وتخفيفه ــ فأراد أن يستر الموقف المكشوف، فسأل سؤالاً ساذجاً متحيراً: أهذه أغنامك؟

قالت الفتاة ــ وقد توردت وجنتاها ــ! نعم هي أغنامي وأنا أرعاها لان والــدي عجوزان.

قال الفارس العاشق: وهل تسكنون قريباً من هنا؟

قالت: إن لنا كوخاً على حافة الغابة.

فاطمأن الشاب لذلك؛ ورأى أن يختم الموقف بحركة سريعة لم يتهيأ لها بتــدبير أو تفكير. فألقى إلى الفتاة بصرة نقود بين يديها ولوى عنان فرسه ومضى يركــضه، والفرسان من خلفه، وهو في شبه غيبوبة، لايدري له وجهة، ولايكاد يملك جسمه على ظهر الفرس.

وأفاقت الفتاة بعد انصراف الفارس الجميل كما يفيق الحــالم مــن حلــم لذيــذ، وأحست كأنما كانت غائبة عن الوجود، ثم هاهي ذي ترد إلى مكانهــا التــي تعهــد، وأمامها شويهات ترعى لم تكن تحس بها أو بما حولها منذ حين. ونظرــ فإذا غبــار ثائر في أعقاب كوكبة من الفرسان، فتعلق نظرها بهذه الكوكبة وارتدت إلى غيبوبتها الحالمة، وكأنما في هذا الغبار الثائر رؤيا مجنحة تحفها التحاويل العجيبة... حتى إذا اختفى المشهد تنفست نفساً عميقاً بعد مامسكت أنفاسها، وهي تتطلع إلى الغبرة الثائرة من بعيد.

ووجدت نفسها تبتسم منفرجة الأسارير، وتلقب في يديها هذه الصورة المربوطة، وكأنها حجر سحري يشيع في جسمها الاهتزاز، ثم تحاول فكها وهي ولاتقصد هذه المحاولة، فتتفتح عن قطع صفراء ذات رنين.

يالله! إنها من الذهب! إنها نقود!

وبهرتها هذه النقود الذهبية التي لم تراها من قبل إلا في أيدي كبار الأثرياء، وشغلها بريقها لحظة عما في نفسها من الشعور المبهم الغريب. ولكن مالبثت هذه الصرة ومافيها أن اتصلت في نفسها بهذا لشعور المبهم الغريب!

وفجأة رأت نفسها تسوق شويهاتها عائدة إلى الكوخ، وهي لاتدري لماذا تعود!

وأطلت من الكوخ عجوز معروقة ثم ارتدت إليه، وعادت بشيخ عجوز، جعل يحدق هو والشيخة في الفتاة العائدة والشويهات أماما وهي تسوق.

قالت الشيخة: ما الذي يجيء بساسو في هذه الآونة المبكرة؟ قال الشيخ: لابد من مكروه. لقد كنت أحس صهيل خيل في الغابة، فلعلهم قطاع الطريق من الأعراب المتهجمين قد هجموا على الرعاة كما يفعلون.

قالت الشيخة: يا لساسو المسكينة! ويا لخوفي عليها! لطالما قالت لك: لاتخرج ساسو إلى الغابة بعد ماصارت في هذه السن، فإني لأخشى عليها ماهو أشد من سلب الأغنام!

قال الشيخ: إن ساسو شجاعة فلا تخشي عليها شيئاً. إنها ابنة أبيها أيتها العجوز!

قالت: ابنة أبيها أو ابنة أمها! لن تخرج إلى الغابة مرة أخرى. وكان ساسو قد اقتربت تخطر وكأنها تطير، وأساريرها تنطق بالبشر والسرور، وأسرعت الأم تقول في لهفة ــ وإن يكن مظهر الفتاة قد بعث إليها بشيء من الطمأنينة ــ: ماذا ياساسو؟

وفوجئت الفتاة بهذا السؤال كأنها لم تكن تتوقعه، فاضطربت وتـوارت على خاطرها أشتات من الصور، وقفت عند صورة منها فتـوردت وجنتاهـا، ونكـست بصرها إلى الأرض، وأجابت في حياء: لاشيء يا أماه. أحس في جسمي بفتور.

وكانت لشدة مانالها من الاضطراب قد اختلجت أوصالها فـي هـذه اللحظـة، وأحست بالأرض تحت قديمها تدور. فألقت بنفسها في صدر أمها التي أسرعت إليهـا تحتضنها في ذعر شديد.

وتعاون الشيخان على إدخال فتاتهما إلـى الكـوخ، وهـي مفتـرة الأوصـال، مضطربة النبض، لاتدري أهي مريضة حقاً أم أن ذلك شيء جديد؟!

واعتقد الوالد أنها ضربة الشمس أصابت الفتاة، فجعل يلوم نفسها أن عرضـها لرعي الأغنام، واعتزم أن يعفيها من الغد من هذه العملية الشاقة، ولـو أنـه محطـم مهدود.

أما الأم ف إن شعوراً داخلها كأنه يوسوس بأن هناك شيئاً غير عادي قد مـس الفتاة اليوم، وإن لهذا الاضطراب سراً غير معلوم.

ولم يعسر على الشيخة أن تعلم من فتاتها كل شيء بعد قليل، وأن تتناول صـرة الذهب فتذهب بها مغضبة إلى رجلها، وتقذفها في حجره بشدة، وهي تقول: ألم أقـل لك أن ساسو لم يكن يجوز أن تذهب إلى الغابة منذ بعيد؟

وفوجئ العجوز بهذا الذهب يتوهج في حجره، وبهذه الصيحة تلقيها العجوز في سمعه. ماهذا وماذاك؟ وماعلاقة الذهب بالصياح؟... واختليا عن ساسو وراحا يقرران أمر لاتدريه.. وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة الثانية قالت:

... ونرجع يامولاي بالحديث إلى الفارس الجميل. فنجده قد دار دورة أو اثنتين في دروب الغابة ومنعرجاتها، مندفعاً كأن قوة سحرية تدفعه إلى وجه غير معلوم؛ حتى إذا انتهت الدفعة، المجهولة، ووقف الركب منت خلفه، وقف ساهماً لايدري أين يذهب ولاكيف يروح أو يجيء. ثم إذا به يلوي عنان فرسه، ويكر راجعاً إلى مكانه. ورجال حاشيته من الخلف لايفكرون أول الأمر، ولكنهم ينتبهون بعد فترة إلى اضطراب حركات الملك وإلى أنه يذهب ويجئ في غير قصد مرسوم.

وحينما يبلغ الركب مكان الفتاة والأغنام يتلفت الملك هنا وهناك فلا يجد أمامه شيئاً، وينخطف قلبه ويدق دقات سريعة ويهم أن يسأل أحد من رجال الحاشية عن الفتاة التي كانت هنا منذ لحظة؛ ولكنه يحس بقسوة المراسم وضغط التقاليد. ويتحول شعوره المكتوم هذا إلى حركة جامحة يدفع إليها فرسه فتشق الطريق في عنف وقوة، وكأنما هو يخرج بهذا الانطلاق الجامح من ربقة القيود والتقاليد!

وبعد جولات طائشة في دروب الغابة ومحنياتها، يعود الملك فيلوي عنان فرسه نحو القصر خارجاً من الغابة في صمت مخيف.

لم يبق شك في نفوس رجال الحرس أن هناك شيئاً، وأن الملك قد وقع في نفسه شيء؛ ثم لم يجرؤ منهم أحمد على السؤال فسار الجميع خلف الملك الصامت صامتين. ولما ترجل ليدخل قال لرجاله: ليلة سعيدة. سأخلو بنفسي، فانصرفوا أنتم جميعاً.

وكان هذا التصرف كافياً ليثبت في نفوسهم ماخالجهم من قبل، فراحوا يتخبطون في الظنون.

وأمر الملك ألا يدخل عليه أحد في جناحه الخاص إلا حين يستدعيه، من جد صارم، فأجفلفوا في نفوسهم، وراحوا يتوجسون.

وعندما حان موعد العشاء لم يكن الملك قد استدعى أحداً ولم يكن أحداً يجرؤ على الدخول. ومضى الموعد وتوغل الليل وكل من في القصر ساهر، وكلهم في عجب شديد.

وأحس الملك بالتعب وهو جالس بملابس الصيد منذ أن عاد ويده تحت ذقنه، وهو شارد الفكر ساهم النظرة ينظر بعينه، ولكن خياله يمتد إلى بعيد، فقام في تثاقل واسترخى على مقعد طويل، وأطلق لخياله العنان يذهب حيثما يريد.

وأطل القمر متلصصاً من النافذة في أول الأمر، ثم أعلن وجوده وأحس الملك كأنما هذا القمر يلاطفه ويؤانسه ويستدرجه للحديث، فسرى إلى نفسه الأنس به والارتياح له، وتحركت شفتاه كأنما يهم أن يفصح للقمر عما يريد.

وأحس بشوق غامر إلى أن يخرج إلى الشرفة حيث القمر هناك يهمس بصوته المسحور، وتختلج خطواته في دبيب لطيف وما أن تجاوز باب الحجرة حتى اشتمله النور، فأحس كأنما يعانقه، فمد إليه ذارعيه في شوق شديد.

كانت الشرفة تشرف على فضاء رحيب يقوم على نهايته طرف الغابة الفسيحة، وسرعان ماامتد نظره إلى الغابة السابحة في ضوء القمر الهادي اللين، فخيل إليه أن الفتاة الآن هناك في هدأة القمر الحالم، فأغمض عينيه وراح يدب في جوارها: يده في يدها. وذراعه تطوقها، وهي تميل برأسها الصغير على كتفه فيتوقفان برهة عن السير، ثم يفتح عينه فيستيقظ ويفيق: إنه هنا في الشرفة وليس هناك في الغاب المسحور!

وفي الهزيع الأخير أحس أنه منهوك، فألقى بكرة معدنية في طست من النحاس، فانتبه الخادم الحارس مذعوراً، وهرول يلبي دعوة الملك، وحينما واجهت بهت وسمر في مكانته... لقد كان الملك لايزال في ملابس الصيد منذ الصباح.

قال الملك: في الصباح الباكر أصحو، حيث تكون فرسي مهيأة. ولايتبعنـــي إلا "حور".

فأما ساسو فكانت قد آوت إلى فراشها الخشن على القش الذي كان مهيأ لمرقدها في الكوخ، على حين ظل الشيخان ساهرين يقلبان وجوه الرأي فيما يعتزمانـــه منـــذ الغد: فراراً بساسو من هذا الخطر المحيق!

استلقت الفتاة على هذا القش لتنام، وإنها لتنام كل ليلة نومـــاً لا حركـــة فيـــه، ولاسيما بعد أن عهد إليها برعي الشويهات في الغابة، فالتعب والحركة والهواء النقي والدم الفائر، كل أولئك كان يهتف بها إلى النوم بمجرد أن يصل جنبها إلـــى المخـــدع على هذا القش الوثير!

أما الليلة فإن هناك في نفسها أمراً يشغلها عن النوم اللذيذ... إنهـــا فـــي شـــغل باستعراض حوادث الصباح ورؤاه العجيبة... هاهي ذي تجلس متكـــأ مـــن العـــشب الجاف وشويهاتها أمامها ترعى في منفرج الغابة. وها هو ذا الهواء الـــدافئ يـــداعب أغصان الأشجار الباسقة فتتمايل كالنشوان الثمل... ثم هاهي ذي تسمع صهيل الخيـــل وترى الغبرة الثائرة وهاهي ذي شويهاتها تجفل فترتد إليها كأنما تلوذ بها فـــي هـــذا الضجيج. وهنا تقف متطلعة، ثم تتبختر في بضع خطوات... ثـــم ... ثـــم هـــاهو ذا الفارس الجميل... إنها لتحس الآن بوقع نظراته الساخنة تتخلل جـــسدها كقـــشعريرة. تحس بذلك الخدر اللذيذ المرتعش تحت نظراته وإنها لتتحسس فـــي جـــسمها الفـــائر مواضع هذه النظرات فتتمطى، ثم تفتح فاها بتنهدة لذيذة، ثم يرتد خيالها إلـــى الغابـــة فتستعرض النظر كله من جديد.

وأطل القمر من كوه الكوخ الصغيرة، فانتفضت من أحلامها الجميلة، كأن هـذا القمر يتلصص عليها في خلوتها، وضمت ساقيها المنفرجتين وذراعيها المتراخيتين... ولكنها مالبثت أن أنست بهذا القمر الذي يوصوص لها من كوخ الكـوخ، وودت لـو تخرج من مخدعها إلى الفضاء الرحب، إلى هذا الانفساح الحالم الغارق فـي ضـوء القمر الشفيف... ودت لو تخرج لتنطلق في هذا الفضاء غيـر المحـدود، ولتجـري وتركض، بل لتحلق وتطير كهذه الفراشات البيضاء السابحة في ضوء القمر... ولكنها تسمع وسوسة الشيخين كأنما لاينامان أبداً... وكاد صدرها يضيق بهما وبيقظتهما تلك في هذه الأوان... ولكنها كانت في شغل عن الشيخين؛ ولم تكن أحاسيـسها لتـستقر لحظة على فكرة معينة؛ فعادت تحلم حلم اليقظان من جديـد، وتـستعرض نظـرات الفارس من جديد، وتستعرض نظرات الفارس من جديد، وتنتظر الصبح فـي شـوق جارف، فالصبح هو الذي يطلقها من حدود هذا الكوخ!

ولم تدر كيف تسلل النعاس إلى مخدعها بريق، فأغمض بأنامله الرفيقة جفونهـا الساهرة، ثم تسلل مرة أخرى وتركها للأحلام اللذيذة، وعلى شفتيها ابتسامة وضـيئة، تشيع في محياها الجميل.

وفي الصباح كان أمر الملك قد أعلن في القصر، وكان حور يتبع مولاه منفـرداً كالكلب الأمين... يتبعه في صمت مطبق، فالملك لايعلن وجهته ولاينطق بكلمة واحدة تهدي إلى اتجاهه.

ولكن هاهو ذا يلوي عنان الفرس إلى الغابة، فيحدث الحارس عما يريد، ويتذكر حوادث الأمس، ويستعرضها واحدة واحدة، ويطيل الوقوف عند منظر الملك الـشاب يحادث الفتاة الراعية... ولكن ماذا؟ إن المعدات لتتخذ لزفاف الملـك الـشاب علـى الأميرة المترقبة... أتراه لايذكر الموعد والاستعدادات على قد وساق؟!

ودار الملك دورة بالغابة، ثم انطلق يجوس خلالها، ويتفقد منفرجاتها وحناياهـا، وقد أخذ الرعاة يفدون. والملك يتطلع إلى كل قطيع وافد، ويلاحق ببصره الرعاة فـي المنعطفات...

وشيئاً فشيئاً يبدو على الملك الضيق والانفعال، وتتـوالى علـى وجهـه شـتى الانفعالات، فيركض فرسه هنهة والحارس وراءه، ثم يقف فجأة، ويلوي بعنان الفرس في اتجاه آخر، كالذي يبحث عن صيد شارد في الفلاة.

وتتقضي على هذا الكر والفر ساعتان، ينهك فيهمـا الفرسـان، ويبلـغ القلـق بالحارس أن يهم بسؤال الملك عما يريد، فلا يجسر على السؤال والملك علـى هـذه الحال... وبينما هو يفكر على هذا النحو إذا بالملك يمرق بالفرس، فيخرج من الغابـة كلها وينطلق إلى تلك الأكواخ المتناثرة على خفافي الغابة، فيخرج منهـا نـسوة مـع أطفال في أسمالهم البالية وهيئاتهم الرثة، يتطلعون إلى الفارسين هنهـة فـي وجـوم وذعر، ثم تعلو وجوههم أمارات الرضا والاطمئنان. فالفارسان ليسا مـن الأعـراض الفتاك.

ويجول الملك بعينيه في هذه الوجوه يستعرضها جميعاً... ولكنه لايجـد بينهـا الوجه الوحيد الذي يبحث عنه في طرقات الغابة ومنعرجاتها، ولو كان يعـرف اسـم صاحبته لسأل، ولكن ماجدوى السؤال، وقد عاقته أثقال الملك وتقاليده عن السؤال في حينه المناسب، فأفلتت منه الفرصة... ربما إلى آخر الزمان؟

وأحس الملك أن الدنيا تزم على صدره وتضغطه، حتى ليكاد صدره أن يتمزق، فخبط جبينه بكفه، وندت من فيه الكلمات بغير حساب!

–لقد ضاعت... ضاعت إلى الأبد. وضاعت معها الحياة! هنا وجد حـور مـن الجرأة مايسأل به الملك:

–من هي التي ضاعت يامولائ؟

قال الملك:

–الفتاة....

وأدرك حور كل شيء، وأعوز أن يجد مايقول؛ فلقد كان يود لو يــذكر الملــك بالعرس المرتقب في نهاية الأسبوع، وبالأميرة المنتظرة، وبالقصة كلها... ولكن وجه الملك لم يكن يشجع على شيء من هذا كله. فقال على غير قصد منه:

–ربما وجدناها في الغابة يامولاي.

وأحس الملك أن كوة من الرجاء تنفتح في قلبه، وتمسك بهــذه الكلمــات كأنهــا اليقين الذي لاشك فيه، ــ وهو يلوي عنان فرسه إلى الغابة ــ:

–لئن كانت هناك ياحور، لتكونن في الغد كبير الحرس!!! وانطلقا.

وأدرك شهر زاد الصباح... فكستت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة الثالثة قالت:

تركنا الفتاة يامولاي سابحة في أحلامها الجميلة، وقد أغمــض النــوم عينيهــا بأنامله الرقيقة. ولكن الفتاة مالبثت أن سمعت ضجة وجلبة، فاستيقظت ملهوفة... لقــد خيل إليها ــ وهي بين النوم واليقظة ــ أنها في الغابة، وأنها ضجة الخيل. وتوســمت من بين كوكبة الفرسان وجه فارسها الجميل!

ولكن ماذا؟

إنهما الشيخان... فماذا يصنعان؟

إنهما يقوضان أركان الكوخ المنعزل، ويحزمان متاعهما القليل الذي يحويه... وهاهما ذان يوقظان ساسو في عجلة. فغن هناك لأمراً..

وريعت الفتاة وتوجست في نفسها شراً.

–احملي ياساسو هذا الحمل فإنه نصيبك!

–ولكن إلى أين ياأماه والدنيا لم تزل في الظلام؟

– إلى أين؟ ليس هذا من شئون الفتيات. إننا راحلون ياساسو، راحلون وكفى! راحلون إلى الشمال، فما عاد لنا عيش في هذه البقعة من الأرض بعد أن كان بالأمس ماكان!!!

وغضت الفتاة بريقها، ودارت بها الأرض، واختفت في فيها الكلمات. ولكنها انحنت عن الحمل فرفعته، كما انحنى الشيخ والشيخة على حمليهما... وانطلق الثلاثة في غبش الفجر، وأمامهم الشويهات؟... إلى الشمال.

ولما كان الوالد خبيراً بالدروب والمسالك منذ رحلته الأولى إلى الجنوب، فقد تنكب الطريق المسلوك، حذراً، وحيطة، إلى مسالك أخرى لايمر بها إلا الخبراء!

وسار الركب الطليح: الشيخ الفاني والعجوز المعروقة يدبان على الأرض كالنمال، والشويهات يطول عليها السرى وتشتد عليها الهاجرة فتهزل وتضعف عن السير، وساسو تسير كالذي يقاد إلى الموت، ويخطو على الشوك. وكلما خطت بقدميها خطوة تلفت قلبها إلى الخلف لفتات... إلى الكوخ العزيز، وإلى الغابة المسحورة. إلى هنالك حيث الحلم الذي أشرق في حياتها لحظة ثم غاب. إلى الرؤيا المجنحة التي لازالت ترفرف هناك...!

-إلى أين ياساسو؟ إلى أين أيتها المسكينة؟ إلى أين يراد بك، وهناك في الغابة حلمك الجميل؟... ومضت ليلة أثر ليلة والركب العاني يسير، والشيخ الفاني يبدو عليه الملل، فإذا الشيخة المعروقة تشتد لتصخب على الشيخ وتثور:

-أتراك كنت باقياً هنالك حتى تفسد علينا ساسو؟ لو كان من لداتها لتركنا الأمور تسير، ولقلنا: نظرة فخطبة، نعرس... ولكن هذا! هذا الفارس الثري البذي يلقي بهذه الصرة من نقود الذهب كما يلقي الحصاة. أتراه يتزوجها زواج الشرفاء الأحرار؟ أم تراه يسرقها من بيننا بنقوده الذهبية حيث تغدو ساسو الشريفة خليلة في عداد الرقيق؟... أتقولي لي: تعبنا وهلكنا؟ النار ولا العار أيها السيخ الخرف. النار لا العار. أليس كذلك أيها الرجل الشريف؟!

ثم يعطو ذلك الركب الكليل. حتى تدركه الهاجرة فيستظل ويقبل.

فأما الملك ــ يامولاي ــ فقد لوى عنان فرسه إلى الغابة كما قلنا وخلفه تابعه الأمين، وكانت الشمس قد أوشكت أن تتوسط السماء، ودار بها دورة ودورة قبل أن ينظر حور إلى وجه مولاه، فيرتجف، ويعلو وجهه الإصفرار.. إنه الشر! فلن تعود الأمور منذ اليوم تسير كما كانت من قبل تسير!

وكرا راجعين إلى القصر، فإذا الهمس الحذر يتلصص في جميع جوانبه والأميرة العروض قلقة تتطلع من نوافذ قصرها في طرف الميدان الآخر، تترقب عودة العريس الشاب الذي ستزف إليه بعد أيام قلائل، ثم هي لاتعلم فيم يذهب إلى الغابة منذ يومين؟ وفيم يبيت ليلته لايخلع ملابس الصيد؟ وفيم يخرج اليوم منفرداً لايتبعه إلا حور؟ ألا أنه لأمر!... ولكن لاتعلم العروس الحبيبة هذا الأمر؟

ولم يستطيع أحد وهو يرى وجه الملك العائد أن ينبس بكلمة حتى أوى إلى الملك إلى جناحه الخاص؛ ثم استدعى تابعه الأمين حور فكلفه أن يختفي في زي الرعاة، ثم يتجسس من خبر الفتاة بين الأكواخ، دون أن يشعر أحداً بتحسسه.

وانطلق حور ينفذ أمر مولاه، وبقي الملك ينتظر، ولكنه لم ينتظر ساكناً ولاصابراً. لقد ظلت عشرات من الصور والخيالات تغزو نفسه وخاطره، وكان يهش لها جميعاً، إلا خاطراً واحداً أسود كان يترجف له كيانه:

–ترى قضى الأمر كله فلا لقاء بعد اليوم ولا اجتماع؟!

ولكنه سرعان ماكان يهرب من مواجهة هذا الخاطر الأسود حتى إذا ألح على خاطره حرك يده بعنف كمن يطرد شيطاناً مساوراً، ثم قام يتمشى في اضطراب، أو يطل من الشرفة وهو يخطو خطوات مرتجلة لاهدف لها ولا اتجاه.

.... ثم عاد الرسول!

لو أن صاعقة انقضت على رأس الملك في هذه اللحظة لكانت أخف وقعاً...

–لقد رحلت ساسو مع أبويها إلى حيث لايدري أحد من الرعاة!

ساسو... مأحلى هذا الاسم الجميل. ساسو وناسو مأحلى اجتماع الاسمين. أتراها الاقدار قد وفقت هذا التوفيق العجيب بين اسم في القصر واسم آخر في الكوخ؟... ولكنها رحلت! رحلت؟ ـ إذن هي حية ـ وهذا يكفي. وهنا تنبثق في صدر الملك أشعة الرجاء... ولكن منذا يدريه أنها لن تصاب بمكروه في الطريق؛ ثم منذا يعلمه مكانها الآن أو بعد الآن؟!

ولم تمض ساعة حتى كان الملك يستدعي كبير وزرائه ـ وهو مشير أبيه ـ لينهي إليه أمراً:

–تبطل مراسم العرس. وتوقف جميع الاستعدادات.

قال الملك:

–وتتوب عني أيها المشير المخلص في سياسة الرعية، حتى أؤوب من رحلة لاأدري مداها. فإذا أنا لم أعد فالملك لك ولأبنائك عن جدارة واستحقاق!

ولكن المشير الذي يدل عليه بالتربية والرعاية لم يسكت. فالأمر جد، ومن واجبه أن يرد الملك عما يريد، ومن حقه أن يعرف على الأقل ماذا يريد.

قال المشير الشيخ:

–يامولاي. أليس لي بحكم خدمتي الطويلة لأبيك من قبل، وحتى إخلاصي لك أنت من بعد، أن أقول كلمة؟

قال الملك:

–بل تقول كل ماتريد أيها المشير الأمين.

قال:

أليس لي أن أسأل: فيم هذا كله؟ وفيم هذه الرحلة المجهولة المدى؟ وفيم ترويع الشعب الذي يحبك ويتطلع إلى شبابك؟ وفيم – على الأخص – ترويع الأميرة التي تنتظر اليوم السعيد منذ سنوات؟

قال الملك:

لقد وددت أن أفصح لك – أيها المشير الناصح – عن هذا كله، بحق مالك على وعلى أبي من حقوق. ولكنني لا أملك هذا الآن. وكل ماأستطيع أن أقول لك: أنني لم

أعد صالحاً لشيء من هذا كله، إلا أن تتحقق لي أمنية واحدة هي التي أرحل في سبيلها هذه الرحلة المجهولة....

وصمت الملك برهة وبدا على عينيه أنه يجوب بخياله آفاقاً بعيدة ثم قال:

-الحياة هناك. هناك أيها المشير المخلص. هناك حيث لاأدري أين تكون! وغلبت عليه التأثر، فتغرغرت عيناه بالدموع...

وتهيأ الملك الشاب ياموﻻي للرحيل. الرحيل إلى حيث لايدري. ولكنه تزيا بزي التجار، وأمر فأعدت سرا قافلة محملة بالزاد والمتاجر من بضاعة الجنوب، يصحبها جماعة من الخدم والحشم، وعلى رأسهم حور حارسه الخاص، الذي كان وحده يعلم سر الرحلة ولايبوح.

ولما كانا المشير شيخاً مجرباً أريباً، ف قد خاف إن هو أشاع بسفر الملك في مثل هذه الرحلة الغريبة أن يحدث ذلك رجة في المملكة لاتحمد عقباها، فاتفق مع الملك ألا يعرف أحد بالخبر، وأن يعلن في القصر أن الملك مريض، وأن الأطباء قد قرروا ألا يدخل عليه أحد حتى يشفى... ورجا بهذه الحيلة أن يدبر الأمور حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وعندما حان الفراق ودع المشير مليكه وربيبه، والدموع تبلل شيبه الوقور؛ ثم تماسك ليواجه العبء الضخم الذي سينهض به منذ الغد وهو شيخ كبير.

أما الشعب فقد شاهد قافلة تمر بالمدينة إلى الشمال كالقوافل الكثيرة التي تهبط في الحين بعد الحين. وعندما أعلن إليه في الصباح نبأ المرض الخطير، خطت القلوب، واهتزت الأعصاب وتوجه الناس بالصلوات والدعوات أن ينجي الإله الملك... ثم انصرف كل إلى شواغله ليرتزق منها ويعش!

بقي قلب واحد لايطمئن إلى هذا الذي يقال، ولايرضى بالحيلولة بينه وبين من يهواه. ذلك هو قلب الأميرة تيتي.... فما بال الملك الشاب ينقلب بين الصبح والمساء من الصحة الموفورة، والشباب المنضور، إلى المرض الداهم والداء الخطير! ومابلها تحجب عن الملك المريض وهو ابن عمها القريب وخطيبها الحبيب؟ أو ممكن أن يتم هذا الانقلاب كله مابين يوم وليلة؟

ثم مابالها لاترى وجه حول تابعه الأمين؟ لقد قيل لها: إنه بعث في رحلة إلى الصحراء لاختيار بعض العقاقير النباتية التي أشار بها الأطباء. ولكن هذا كله لم يكن ليطمئن فؤادها المضطرب، أو يأخذ طريقه إلى قلبها المتوجس. لقد ظلت هواجس سوداء تندس في نفسها وتوسوس في صدرها: إن هناك لأمراً. وإنها لاتدري ما الأمر، ولكنها تحس أنه شيء آخر غير الذين يقولون!!!

وعندما غادرت القافلة حدود المدينة وجد الملك نفسه يعرج على الغابة دون قصد. فيتبعه حور مشيراً إلى سائقي القافلة أن ينتظروهما عند العدوة الأخرى، والملك في شبه ذهول عما يجري خلفه من أمور.

وسار التاجران تحملهما بغلتنا فارهتان جوسان خلال الغابة، ويطوفان بمنعرجاتها، ويتدسسان في منحنياتها... وفجأة ينتبه الملك من ذهوله، فيلتفت إلى تابعه ليقول:

–ماهذا الذي نصنع ياحور؟ لما نجوس خلال الغابة كالمشردين؟ ألم ترحل ساسو عن الغابة؟ فلما نضيع الوقت في هذا التجوال السخيف؟!

وصمت حور برهة لايدري كيف يجيب. ثم تمتم:

–لقد رأيتك يامولاي تسير، فأشفقت أن أتركك وحدك، فسرت خلفك، لأحرسك وأفديك!

قال الملك:

–رعاك الإله ياحور. ماأشد إخلاصك وماأحسن أدبك. عد بنا إلى الخارج. وأين القافلة؟

قال:

هي تدور بالغابة لتنتظرنا هناك عند عدوة الطريق!

عدوة الطريق!... وكأنما فوجئ الملك بهذه الكلمة! فما الطريق؟ ما الطريق التي انتوي أن يسلكها؟ إلى الشمال أم إلى الجنوب؟ إلى الشرق أم إلى الغرب؟ إنه لم يسأل نفسه هذا السؤال، ولم يطرحه عليه أحد وهو في هذه الحال. فما كان في موقف يسح لأحد أن يسأله: إلى أين؟

إنه يريد الحورية الهاربة، تلك التي مرت كالحم في حياته ثم أدركه الصحو فلم يجد أثراً لطيفها الجميل. يريد هذه النجمة التي لاحت له فحسبها ملك يديه، ثم إذا هي تبعد في الأفق حتى تغيب، وتتركه قائماً في مكانه لايدري كيف يذهب، ولا أين الطريق؟

أين الطريق؟

وأين ذهبت هي ليدري ما الطريق؟ شرقت أم غربت، وانحدرت إلى الشمال أم أصعدت في الجنوب؟

ثم التفت إلى حور:

–أو لم يقل لك أحد أين توجهت: إلى الشمال أم إلى الجنوب؟

ونكس حور بصره وهو يقول:

لايامولاي. لقد حاولت أن أجد أحداً يكون قد أبصرها وهي ترحل، فلم أعثر على أحد يعلم عنها شيئاً.... ولكن شيخاً كبيراً في السن قال: إنه يظن أنهم قد اتجهوا إلى الشمال لأن آثاراً في الرمال تتجه إلى هناك... ولكن هذا كله حدس وتخمين!

–إلى الشمال. إذن هيا بن إلى الشمال. فإن قلبي وحده دليل. ثم تنهد وهو يقول.

–إن قلبي ياحور ليشم رائحتها كما تشم القطا ريح الماء من بعد سحقيق... إلى الشمال؟ هيا بنا إلى الشمال. هيا بنا قبل فوات الأوان... وانطلق كالمحموم!

وبينما كان الملك والقافلة معه تجوب دروب الصحراء ومسالكها المطروقة، كان العجوزان والفتاة يقطعان الدروب الخفية ويتنكبان الطرق المألوفة، حتى بعدت الشقة بين الركبين، ولم يعد ثمة مجال لالتقاء.

وصمتت ساسو طوال الرحلة الكثيبة، وخبا في عينيها ذلك البريق الذي خطف قلب الملك، وشاخت الفورة اليت كانت تنتزى في كيانها كله، وخيم على نفسها اليأس والظلام، وأحست أن حياتها لاتساوي أن تعاش، بل أحست بالغضب يدب إلى كيانها كله، الثمرة الناضجة التي لاتجد من يقطفها في اللحظة المناسبة، فتعطب ويدب إليها الفساد.

فلما استقر بها وبأبويها المقام في النهاية على مرعى من مراعي الصحراء المتناثرة، بجانب خيام لبعض الأعراض هناك، عرفت نهاية المطاف، وآوت إلى صمت كئيب مخيف، لم تلفح العجوز الثرثارة أن تخرج فتاتها منه إلا أن نحيب مؤلم، وإلى تأفف ثائر، لاتلبث الفتاة أن تهرب على إثره من توجه العجوز البائسة لتخلو إلى الهم المطبق المقيم.

واتصلت العلاقات ـ بعد قليل ـ بين الشيخين والأعراب المقيمين حول المعرى. ولفتت ساسو الجميلة نظر شباب من الأعراب الضاربين في الخيام، ففتن بها

قبليه منذ النظرة الأولى، ولكن طابع الحزن القاتم حزّ في قلبه، فآلى على نفسه إلا أن يضم هذه الفتاة الحزينة إليه، ليملأ حياتها بهجة وحبوراً.

وحدث أبويه بما يجول في نفسه ــ وأبو شيخ القبيلة ــ فوافقاه، وتقدما يخطبان ساسو من أبويها. ولما كان الشيخ يدرك أمر الفتاة كله، فقد أشفق أن يجيب، ولكنه كان محرجاً فهو نزيل في جوار شيخ القبيلة، ولن يأمن رده خائباً بعد ماأسلف إليه من جميل... عندئذ نفض يده من المسألة وأحالها على زوجة وابنتها...

وراحت الأم تتطلف في نقل الخبر إلى الفتاة، وتثني على الفتى الذي تقدم لخطبتها خطبة الشرفاء... و... و... وماسمعت الفتاة خلاصة الحدث حتى أحست لأول مرة بعد الرحلة المشئومة أنها تملك لسانها، فاندفعت ثائرة كاللبؤة الجريح، ترفض وترفض وترفض، وتتحى على الأم والأب بلا ترفق ولاتحرج وتسب الرحلة المشئومة التي ساقتها إلى هذا المكان، وتعلن في تأكيد قاطع أنها لن تكون لأحد من الأناسي، وإذا لم يكن بد من أن تكون لأحد، فلتكن لوحوش الفلاة أو كواسر الجو أو دود التراب!

وانطوت على نفسها بعد الثورة الجامحة، وراحت تنشج نشيجاً متواصلاً، وجسمها كله يرتجف ويهتز، والعجوز اليائسة تتسى ثورة الفتاة وجموحها لتضمها إليها ضماً رفيقاً، تسكن جأشها، وتهدئ من كل ضغط، فتهدأ الفتاة رويداً رويداً، وترقأ دموعها المنهلة، ويسكن جسدها المضطرب، ويأخذ النوم في حجر أمها فتنام!

فأما الشيخ وضيفه فقد سمعوا، سمعوا كل شيء؛ فما كان الخباء الرقيق ليحجب حرفاً ولانبرة مما دار بين الأم والفتاة، فنظر بعضهم إلى بعض، ثم هم الضيوف بالانصراف معذرين للشيخ الفاني، وإن لم تسترح ضمائرهم لهذا الجموح من فتاة!

وأما الملك الشاب فقد انطلق في الأيام الأولى مؤملاً راجياً في قلق واضطراب. فلما انقضت الأيام وطال عليه الأمد وكثر تطوافه بالصحراء وارتداده للريف، يراوح بينهما لتبيع القافلة بعض ماتحمل من بضاعة، وتستعيض عما ينقص من الزاد والماء في الرحلة الطويلة... عندئذ أخذ اليأس يدب إلى نفسه وهو يطرده فيلح عليه، وكلما امتدت الرحلة نضب معين الرجاء، وحل مكانه في قلبه ذلك الجدب المقفر الموات.

وطال الحال. وانقضت ستة أشهر طويلة مملة. فخبأ في نفسه كل بريق، وانطمس في قلبه كل رجاء. ولكنه كان منساقاً إلى البحث والتجوال، لايدرك ماأصاب رجاله من الإعياء، وما أصابه هو نفسه من البلى. لقد كان يجف كما يجف العود، يجف بدنه ويجف قلبه، وتدب الشيخوخة الباكرة إلى كيانه وهو لايدري. لقد أصبح قطعة ميتة من هذه الصحراء الجاثية الجرداء....!

وفي ليلة من الليالي وقد طلع القمر على الصحراء الوسيعة الفسيحة، طافت بنفسه الذكرى: ذكرى الليلة الأولى التي أشرف فيها على الغابة من شرفة القصر، فنسى نفسه يومها ونسى القصر والملك، وأحس أنه هناك في الغابة يسير والحورية الفاتنة ترافقه، والقمر وحده يشهد جولتهما في قبة السماء...

وتنهد في جوف الليل يحرقه حتى لكاد صدره أن ينشق، وأخذ ينشج نشيجاً حاراً متواصلاً، والصمت من حوله مطبق والقمر وحده يشهد في صفحة السماء....

هنا أحس حور بشهقة الملك فانتفض مستيقظاً، وتقدم إلى الملك، ناسياً جميع مابينهما من فوارق. تقدم إليه كما يتقدم الصديق للصديق، يعطف عليه ويواسيه. واتصل قلب الملك بقلب تابعه الأمين، فأخذ يبثه لواعج نفسه في إسهاب، وبلا كلفة ولااحتياط.

واقترح حور أن يقوما بجولة وحدهما في هذه القمراء، لعل السير والسمر يفرجان عن نفس الملك الحزينة، فما كان أسرع مالبى الملك الاقتراح. وسارا على هينة وائتاد، وأخذهما الحديث الطويل، والقمر المنير.

لقد كان الملك يقص على حور قصة حبه جميعاً. وكان يصف له كل خاطرة وكل انفعال. وكان يستعرض معه اللحظات القصار التي مرت عليه في حبه، وكأ،ما هي دهور طوال لفرط مازدحمت بالأحاسيس واللفتات والملاحظات والانفعالات. وماكان حور لينطق بشيء إلا أن يجيب على سؤال ملهوف من المل: ترى نلقاها كرة أخرى؟ فيتكلف الرجاء والثقة، ويجيب في توكيد وتشديد: لابد. لابد يامولاي...! وهنا تتفتح للملك أبواب الرجاء على مصاريعها، وكأنما هذه الكلمات التي ينطقها حر تعاويذ سحرية تفتح له أبواب الرجاء!

وأوشك الصبح أن يشرق، فإنتبه العاشق المسحور ورفيقه المبهور، وعلما على حين بغتة، أنهما قد أبعدا في الصحراء، الصحراء الجبارة التي يتوه فيها الدليل. وانقضا كمن يبغت بالخطر، وإن لم يعلما بالضبط أنهما قد أوغلا في التيه.

وحينما راحا يتحسسان آثار أقدامها ليعودا أدراجهما كانت الريح قد عفت على هذه الآثار، وكان أمامهما أن يضربا في الصحراء على غير هدى، يلتمسان العودة إلى محط القافلة على غير جدوى...!

وانقضى اليوم الأول في بحث مضن بين الرمضاء في الصحراء والفزع المستولي على الخاطر، واليأس من الاهتداء للقافلة في التيه، واليأس الأكبر من الأمل الأكبر، والعطش الذي يجفف البدن ويشوي الأعضاء.

وتحنن الله عليهما في اليوم الثاني فإذا سحابة تظلل الشمس، وماتلبث أن تمطر، فيوجد الماء. الماء العزيز الثمن. وحينما يعبان ويرتويان يعادوهما الأمل في الحياة، وينفتح لهما باب الرجاء.

وبعد قليل يستشرفان قافلة عن بعد، فيتحملان على أنفسهما ويجريان إليها هاتفين بأعلى ماتصل إليه أصواتهما. ويجدان عند القافلة شيئاً من الزاد كما يجدان ماهو أعظم: يجدان الهداية إلى الطريق، فلقد مرت القافلة بالقوم يبحثون عن رجليهما الغائبين، فهي تدلهما على أقرب طريق إلى قومهما، وتزودهما بالقليل من الزاد والماء، فينطلقان على هدى حتى يصلان في نهاية اليوم، وقد أوشك القوم على اليأس من عودتهما سالمين.

هنا يجد حور من الشجاعة مايسأل به الملك: أوليس من الخير أن يعودوا إلى مملكتهم بعد ستة أشهر طوال في التجوال، ويدعا الأمر للمقادير، فقد توفقهما إلى مايريدان من أقصر الطرق، إن كانت قد قدرت في حسابها اللقاء؟!

ويقول الملك: الحق معك ياحور. لقد أتعبتك وأتعبت رجالك، فامضوا أنتم إلى هناك في رعاية الإله، ودعوني هنا وحدي، فما عاد لكم في خير، ولا عاد لي في نفسي أمل. فإما اهتديت إلى من أريد، وما أكلتني وحوش البرية، أو أهلكني الجوع والعكش، فاستريح من هذا العذاب الذي أقاسيه!

ويأبي حوى على الملك، ويظل يتلطف معه أياماً وليالي،ـــ ويحدثه بالعبر، ويقص عليه من السير، ويعرض له حوادث الفرج بعد الضيق، واللقاء بعد أقرب طريق، حتى يلين جماع الملك، فيقبل العودة، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

وكرت القافلة عائدة، وكلما خطت خطوة إلى الإمام تلفتت عين الملك وقلبه، وأحس بالهزيمة والانكسار. لقد كانت عودة القافلة عودة الجيش الهزيم المنكسر يجلله

الخزي واليأس، وكانت الجمال قد هزلت كالرجال، فكان يخيم على الجميع جـــو مـــن الهمود والوحشة والكلال.

وأيقن الملك أن الحلم المشرق البهيج الذي لاح له في حياته فترة قـــصيرة قـــد مضى وانطوى، وأن "ساسو" الجميلة ليست سوى طيف عابر أشعل قلبه وهز روحه، ثم ارتد عائداً إلى المجهول؛ فأحس أنه لم تعد له صلة بهذا الكون الغريب، ولا علاقة بهذه الدنيا الموحشة؛ أحس أنه من عالم آخر لاعلاقة له بهذا العالم المحـــسوس. مـــن العالم الذي لاح له فيه ذلك الطيف العابر ثم غاب.

وفكر مرة ومرة والقافلة تقترب من المدينة أن يعود علـــى قبيـــه، أو أن ينفلـــت متخفياً فيهيم في الصحراء التي تمتد إلى آفاق غير محدود’ن تشبه التيه الذي تهيم فيه روحه، بما فيه من وحشة وظلام ولكنه كان يجد نفسه منساقاً مع القافلة، لأنه لم تعـــد له العزيمة التي تقرر التخلف والانفراد.

وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة الرابعة قالت شهر زاد:

عاد الملك يامولاي أخيراً إلى مقر ملكه. عاد بلا قلب. عاد إنساناً آخر لا أمل له في شيء، ولارغبة له في شيء... لقد شاخ وشاخت رغباته. فلما اســـتقبله المـــشير متهللاً مبتهجاً بعودته إلى ملكه وعرشه وشعبه، وعرض عليه أنه سيشيع منذ الغد نبأ شفائه، فتدق الطبول وترفع الأعلام وتقام الأفراح و... و...

أشار إلهي بيده في يأس:

-لاداعي إلى شيء من هذا كله. فالذي عاد اليوم جسد هامد قد فارقته الحياة!

ووجم المشير الشيخ وانطمست في قلبه كل أشعة الفــرح، وســأل فــي يــأس وانكسار:

–ماذا إن يامولاي؟

أجاب الملك:

–يبقى كل شيء على حاله. وتظل أنت في تصريف شئون الرعية. وليعلم الناس أن لي شأناً آخر يصرفني عن الملك كله وعن الناس!

قال المشير:

–لن يصلح الأمر هكذا يامولاي. فالشعب لن يفهم هذه الألغــاز، ولــن يــصبر طويلاً على هذه الحال!

قال الملك:

–إذن تصرف في الأمر كما تشاء...

وآوى إلى مخدعه الذي فارقه منذ زمان. دون أن يعلم أحد شيئاً. وذلك بحكمــة الشيخ الزرين.

لم تعد للملك حياة. لقد كان محقاً فيما قال. لقد عاد جسداً هامداً فارقته الحيــاة. عادوا لهم يجثم على صدره فيتراخي ويهمد ولايحاول المقاومة. وعجز "حــور" كمــا عجز المشير الشيخ أن يجد لداء الملك علاجاً، وسقم جسمع، وهده المرض ستة أشهر طوال. إلا أن خاطر مضيئاً قد التمع ذات يوم في نفس حور... فإذا هو يقترح علــى الملك أن يخرج للرياضة في الغابة، فقد تعاوده الصحة... ومن يدري. فقد يتــراءى خيط من رجاء!

وكأنما كان الملك يسمع وحياً من السماء. فانتفض نشيطاً وأبرقت أساريره للخاطر الجديد. ولم تكن إلا لحظات حتى أعلن في أرجاء القصر، وفي أرجاء المملكة، أن الله قد من على الملك بالشفاء، وأنه في دور النقاهة، وقد نصح له الأطباء بالتجول في الغابة ليستنشق هواءها المعطر، حتى تكمل له عافيته بإذن الإله!

واجتمع الشعب في الساحة الواسعة، وقد استخفه النبأ بعد الانتظار الطويل، وتهيأ الملك وتابعه للخروج، وقد كان ينتصف النهار، في الوقت الذي جاء فيه رسول الأميرة الشابة المعذبة يعلن عن رغبتها في مقابلة الملك بعد طول الاحتجاب، وشوقها الذي لايوصف بعد الغياب...

وكاد يفسر التدبير كله، فما كاد يسمع باسم الأميرة حتى تمثلت له القصة كلها، وحتى ثارت كوامن أشجانه جميعاً. لولا أن تلطف حور مع الملك حتى ينفذ رياضته، وتلطف المشير مع رسول الأميرة لتؤجل الزيارة إلى أن يتم للملك الشفاء.

ولما خرج الملك من القصر دوّت الساحة كلها بالهتاف الحار والدعاء الخالص، وارتجت جوانب المدينة بالحركة، وانطلقت الألسنة بالحديث. وكان يوماً مشهوداً في حياة المملكة، وظل الهاتف يدوي والملك في الطريق.

ولما قرب من الغابة هجمت عليه الذكريات، وخفت صوت الجماهير في أذنه، وارتفع صوت واحد محبب جميل، يتسلل إلى أذنه، كأنما ينبعث من سماء بعيدة، ومن وراء الغيب السحيق:

–نعم. هي أغنامي. وأنا أرعاها لأن والدي عجوزان... إن لنا كوخاً على حافة الغابة.. وظل هذا النغم المستسر العميق يتردد على سمع الملك كلما حطا خطوة وهو غائب عن الوجود، وأساريه تنفرج ما يحلم الطفل حلماً وضيئاً فيبسم في النوم الهنئ

حتى إذا كان في مهبط الحلم الأول انتفض كالمباغت المفجؤ، وانفرجت شفتاه ينـــادي في لهفة واجفة:

ساسو ساو! أنت هنا ياساسو؟ ثم يرتفع صوته فجـــأة بنـــداء صـــارخ عنيـــف ممطوط، يردده الصدى في الغابة كلها: ساسو.... فيرتاع حور، ويظن بعقـــل الملـــك الظنون، ويغير موقفه خلف الملك فيواجهه في شجاعة ترده إلى اليقين:

-مولاي! يحرسك الإله! أين ساسو يامولاي؟ ادع الإله أن يردها عليـــك، إنـــه سميع مجيب!

ويفيق الملك، فيدركه الحياء. ثم ينظر إلى حور فيقول:

-إنها هنا يحور. قلبي يحدثني أنها هنا... إن قلبي لايكذبن. أشم رائحتها. أشمها في نفسي وحسي. إنها هنا بلاشك... ثم تجحظ عيناه، ويبدو فـــي هيئـــة المجـــانين، وينطلق صائحاً:

-ألم أقل لك: إنها هنا يارفيقي. أنظر هاهي ذي ساسو هاهي ذي ساسو. ساسو. ساسو. أنت هنا. أنت هنا... ويقذف بنفسه على ظهر الفرس، ثم يعدو كالمجنون!

ينظر حور إلى حيث ينطلق الملك، ويسمع من حيث صـــار الملـــك، فيدركـــه الدوار، ويمسك برأسه بيده من الدهش... إنها ساسو حقيقة. وهي بين أحضان الملـــك تغمغم: "وأنت هنا أيها الفارس الجميل". ثم يغيبان عن الوجود!

كان الشيخان قد رحلا عن المكان بساسو فما عاد لها عند شيخ القبيلة جـــوار... وكان الهم الذي ركب ساسو يحز في نفسيهما فيدركان يوماً بعد يوم أنهمـــا قـــاتلان، وهما يريانها تذبل في كل يوم وتذوي، وتنطفئ شعلة الحياة في كيانها الجميل.

وثقل الهم والشيخوخة على الوالد ففارق الحياة، وترك العبء كله على عاتق العجوز فلم تطقه طويلاً، وآثرت أن تترك ساسو وحيدة في هذا العالم، وتذهب إلى العالم الآخر بعد طول النضب والأعياء.

نظرت ساسو فإذا هي وحيدة في الصحراء. فخطر لها في ساعة من ساعات الضعف أن ترتد إلى خباء شيخ القبيلة تعرض نفسها على فتاه... ولكن العزة أدركتها. بل أدركها رجاء آخر. رجاء جنوني، ولكن الحب يزينه ويقرب آماده.

-أما إننها لتعودن إلى الغابة. فستجد الفارس الجميل هناك!

تعود الغابة! وأنى لها أن تعود؟ وبينها وبين الغابة تلك المفاوز والمهالك، وهي فتاة وحيدة لاعلم لها بالطريق ولامعين لها في الأسفار. ولكن الحب لايعرف المستحيل. وأنها لتسير وتسير. فهي تعلم أن الوادي في الغرب، فلتكن الشمس هي الدليل.

وكاد أن يدركها العطب مرات، ولكنها كانت تنجو. فلما بلغت الوادي كانت قد استحالت صفراء غبراء هزيلة، وهي في روق الشباب.

وهوت إليها الأفئدة، فوجدت طريقها في مركب إلى مملكة تاسو... ووحدت قديمها تقودانها إلى الغابة في الصباح الباكر بعد اليأس من العودة إلى مهبط الحب الأول. ولكن هاهي ذي تصل إلى الغابة فلا تجد الفارس الجميل، فتنهار أحلامها وتتد قواها، وينكشف لها الوهم عن الخيبة المرة الأليمة. وإنها لتكاد تتردى تحت تأثير الصدمة القاتلة، فتتهالك مهدودة لتنام حيث كانت يوم التقت بالفارس الجميل. وفي النوم تعتادها الرؤى البهيجة، فترى الفارس الجميل يختال بفرسه الجميل، وتسمع صوته العذب القوي النافذ يناديها، فتجري إليه كالمجنونة... ثم تصحو فإذا هو طائر منت طيور الغابة يحلق إلى بعيد... وتجد في نفسها الأنس والبشر بالحلم الذاهب

والطائر المبتعد، وتحس طمأنينة عجيبة وشوقاً كذلك جارفاً، وتجد في كيانها نشاطاً موفوراً وتحس بحاجة شديدة ملحة إلى أن تغني أو تبكي أو تطير!

وكانت الشمس قد ارتفعت حتى كادت تستوي في كبد السماء، والدنيا ربيع كالربيع الأول الذي اجتمعت أبانه بفتى الأحلام، والدفء المنعش يفتر الأوصال، ويشيع فيها خدراً لذيذاً أشبه بنشوة السكر اللطيف، والطبيعة كلها تتفتح كالعذراء الناجزة تداعبها أشهى الأحلام.

وتطلعت الفتاة هنيهة إلى الطبيعة حولها في فتور، ثم تمطت ونشرت ذراعيها في الفضاء، ثم هبت واقفة. ونظرت كالذي يستشرف آفاقاً بعيدة، وإن كانت في الواقع لاترى إلا الحلم الوضيء الجميل ثم مرت لحظة... ثم كان ماكان...

وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة الخامسة قالت:

عاد الملك إلى قصره وقد تبدل إنساناً آخر، متهلل الجبين، متوفر القوة، جم النشاط، عاد وبرفقته الحورية التي أطلعتها في حياته الأحلام، وردتها إلى حياته الأحلام، فلم يعد يصدق إلا أنه في حلم من الأحلام.

فأما "حور" تابعه المخلص الأمين فكان يعلم من القصة كل شيء، وأما مشير الملك ورجال الحاشية فلم يكونوا قد عرفوا بعد جلية الأمر. لهذا دهشوا وهم يرون الملك عائداً وقد أردف خلفه فتاة من الرعاة!... أتكون هي الصيد الذي خرج الملك إلى الغابة يبغيه؟!

لقد عقدت الدهشة ألسنتهم جميعاً، وزادت دهشتهم حينما رأوا ملكهم يترجل ليمد يده إلى فتاة الغابة، فيساعدها على النزول وإن لم تكن في حاجة إلى المساعدة، فقد انفلتت عن ظهر الفرس كالظبي النافر، وإن كانت لاتزال تبدو عليها آثار التعب والهزال.

وكانت الكلمة الأولى التي فاه بها الملك للمشير، والدينا لاتكاد أن تسعه من الفرح الجارف المتوثب في حركاته ونبراته:

–لقد وجدتها أخيراً. لقد وجدت الحياة!

ثم أشار إلى حور إشارة خاصة فهم منها كل مايعنيه. ولم تمض لحظات حتى كانت فتاة الغابة في الحرم، في طريقها إلى الحمام، تتهيأ للحياة التي نسجتها من خيوط الأحلام.

ولم يبد على المشير الشيخ أنه يفهم شيئاً من هذه الألغاز، ولكن الكثيرين من رجال الحاشية فهموا كل شيء، وصدقوا ظنونهم التي نبتت في أذهانهم منذ اليوم الأول، فأدركوا قصة الملك جميعاً.

وقال المشير:

–لم أكد أفهم شيئاً يامولاي!

فوجد الملك في نفسه من الخفة والنشاط والمرح مايطوق به الشيخ الوقور، وهو يقهقه في صوت عال، ثم يقول:

–لم تكد تفهم لأن قلبك لم يعد قادراً على الإيحاء إليك ياعزيزي الشيخ، تعال أقص عليكم النبأ بالتفصيل...

وانزوى الملك بالمشير في جناح خاص. وترك رجال الحاشية يلغطون وتعجبون.

وفي الصباح كان المنادي ينادي في أرجاء المدينة يحمل البشرى بتمام شفاء الملك، ويعلن إليه إقامة الأفراح والزينات ابتهاجاً بهذا الشفاء، وابتهاجاً بزواج الملك، فستزف إليه الفتاة التي ردت عليه الحياة، وعلى يديها كان الشفاء....

وتسامع الناس بالنبأ العجيب، فتزاحموا حول المنادي يسمعونه مرة مرة، وهم لايصدقون مايسمعون...

إذن لن تكون الأميرة هي العروس، وإذن ستكون فتاة الغابة ــ كما أسموها ــ هي الأميرة الجديدة... وانطلقوا يتحزبون ويتجادلون ويثرثرون:

فأما فريف منهم فمتذمر لهذا الانقلاب الذي يقصي الأميرة الأصلية بعد طول انتظار، ليحل محلها فتاة من الغابة لايدري أحد شيء عن أصلها ونشأتها، ولاتتطلع طبعاً إلى أن تصبح سيدة القصر وربة التاج... ومن هذا الفريق فتيات المدينة ونساؤها جميعاً!

وأما فريق آخر فمستبشر مهلل بهذا الانقلاب، وفي صميم نفسه شعوراً غامض بأن هذا تصرف إلهي يرفع من مقام الشعب، ويزيل الفوارق بينه وبين أكبر الرؤوس في البلاد!

وباتت المدينة تغلط وتثرثر بمثل هذه الأحاديث، يرتفع الجدل تارة وينخفض أخرى، ويكاد أن يصل في بعض الأحيان إلى التصادم والشجار، لولا أن يبرز عاقل أو عاقلة فيرد الأمر إلى الهدوء والاعتدال.

وكثرت الفروض، وتعددت التأويلات، وانتشرت القصص والأساطير، حول الحديث الخطير:

رغم فريق أن الكهنة والعرافين كانوا قد تنبأوا للملك الراحل بكل ماسيكون من شأن وليده الملك الحاضر في يوم ميلاده. وكان النبوءة توحي بهذا الذي وقع، فخطب له الأميرة الصغيرة ليتقي تحقيق النبوءة، ولكن المقدر المسطور، لابد أن يقع حتى داخل القصور!

وزعم فريق أن الأميرة كانت قد قست على إمرأة عجوز فقيرة رأتها تلوذ بطنف القصر من الوابل المنهمر، فأمرت بإبعادها عن القصر، حتى لاتشوهه بمنظرها القذر!

وزعم فريق أن فتاة الغابة إن هي إلا إحدى الحوريات، عشقت الأمير الشاب وهامت به، فجعلت تتراءى له في الأحلام حتى هام بها في الصحراء والوديان، ومرض بحبها ذلك المرض العضال، ثم تجسمت له أخيراً في صورة فتاة الغابة. ولا أحد يدري كيف تسير الأحوال!

وبينما كانت الأساطير والأقاويل تملأ حياة الشعب وتعمر مجالسه، كانت هناك مخلوقة أخرى تكاد تجن مما يقال. كانت الأميرة "تيتي" قد سمعت في قصرها نداء المنادي، فلم تصدق أدنيها أو لمرة، فأضعت له ثانية وثالثة حتى ابتعد، فأرسلت وراءه إحدى جواريها تتأكد.

وغابت الجارية قليلاً الأميرة في شبه حمى، فلما عادت توجهت إليها الأميرة ملهوفة تسألها عما سمعت كأنها لم تسمع به أول مرة، فأخذت الجارية تروي لها وهي تلهث ماسمعته من المنادي، وماقتطفته من تعليقات الجماهير. وبينما هي ماضية في

السرد المتقطع اللاهث، تقدمت منها الأميرة في غضب هائج، وأمسكت بكتفيها في عنف، وهزتها في ثورة، وصرخت فيها تقول:

–ويحك! ماذا تقولين ياشقية!

فارتعدت الجارية من الخوف، وانعقد لسانها من الذعر، فدفعتها الأميرة في عنف، وانطلقت إلى النافذة تتسمع أصداء المنادي من بعيد.

فلما ابتعد الصوت والصدى عادت فألقت بنفسها على فراشها مهدمة، وراحت تنشج نشيجاً متقطعاً مكتوماً لاهثاً. ولم تجرؤ الوصيفات على الاقتراب منها إلا بعد فترة طويلة، قالت إحداهن:

–يامولاتي. يجب أن نبعث برسول إلى سراى مولاي يتأكد ويأتينا بصحيح الأخبار.

وهنا اعتدلت الأميرة، وكأنما هفتح لها باب الرجاء، ولكن في هذه اللحظة أدركتها الكبرياء...

قال:

–لن أرسل أحداً ولن أتأكد من شيء!

قالت الوصيفة:

–إذا أذنت مولاتي، فسأتولى أنا الأمر، ولن يعلم أحد أن الأميرة بعثت تستفسر.

فوجدت الأميرة راحلة لهذا الحل، ومنقذ من الغضاضة المرة التي تحسها، ومنفذاً للقلق الجامح الذي يستبد بها. فقالت للوصيفة:

-لاشأن لي بشيء، فأنت وماتريدين!

وانطلقت الرسل شتى تتحسس الأمر من قريب ومن بعيد، ثم عادت إلى قصر الأميرة بالخبر الأكيد: لقد انتها الأمر فالعروس تجلى، والزفاف في الغد، وقد عجز المشير كما عجز رجال الحاشية عن تحويل الملك عما يريد، حتى اضطر المشير الشيخ إلى اعتزال منصبه، فتولاه "حور"، أحب رجل في المملكة إلى قلب الملك، وموضع سره فيما خفى من الأمور ودق.

وعلمت الأميرة قصة الملك جميعاً، فلم يعد خافياً على أحد شيء من تفصيلاتها، ولم يعد أحد يملك للأمور رداً، بعد ماانتهت إلى قرار حاسم لارجعة فيه.

ومضت الساعات الباقية من النهار، والأميرة في اضطراب، تحاول إخفاءه، وفي حركة حائرة لاتستقر ولاتهدأ، ولاتتجه بها وجهة معلومة. وأقبل الليل يمشي وئيداً كالحاً رهيباً، فانفردت الأميرة في حجرتها، وأقصت عنها الوصيفات والجواري، كأنما تنفر من مواجهتهن وهي هزيمة كسيرة... وبدا لها أن الفلك قد كف عن الدوران، وأن الليل قد جثم في مربضه، يتطلع إليها بألف عين وعين، ويغمز لها غمزات السخرية والنكاية والإذلال... وأحست بالحمى تتمشى في مفاصلها، وتصعد إلى رأسها فيفور، وشعرت بأن شعرها يتناثر ويقف، فضغطت رأسها بكلتا يديها، وقامت متفزعة تذرع الغرفة الواسعة في شبه جنون.

وظلت هكذا تروح وتجئ، وأفكارها مشتتة كخطواتها ولاتستقر على وضع، ولاتركن إلى فكرة، حتى أحست بالإعياء فاستقلت مرة أخرى في كلال.

وكأنما أدركها النوم، فإذا هي ترى فيما يرى النائم أنها مع ابن عمها الشاب في خلوة رائقة، والقمر يطل عليها من النافذة. وبينما هي كذلك إذا بفراشة صغيرة ترفرف في الفضاء ثم تقرب من النافذة المفتوحة، فيتوجه إليها نظر الشاب... ثم إذا

هي تكبر وتكبر حتى تصير في حجم النسر الكبير. وإذا هي تطوف الملك، ثم تنطلق به من النافذة في الفضاء، والأميرة تحاول أن تلحق بهما فلا تستطيع. وإذا هي تصرخ مستغيثة. ثم تفتح عينيها فإذا الوصيفات من حولها، وإذا نور الفجر يوصوص من الشباك!

وصحت الأميرة مكدورة لتستقبل الصبح الميت، فإذا الكون كله في نظرها قد مات، وإذا هي تحس أن مايفصلها عن الأمس آباد وآباد، وأن الماضي بعيد بعيد، وأن الدنيا من حولها شيء غريب، وأنه لاتربطها صلة بكل هذا الوجود.

وقال إحدى الوصيفات:

-ألا تأمر مولاتي باستشارة إحدى العرافات؟

وأضاء هذا الخاطر المفاجئ قلب الأميرة، فشع في عينيها الرجاء، وأمرت إحدى الجواري أن تطلق إلى عرافة شهيرة بالمدينة... وماهي إلا ساعة حتى كانت في حضرة الأميرة:

وقالت لها الوصيفة بعد استقبال حافل:

-إنك ستؤجرين أجراً يغنيك العمر كله، لو استطعت أن تكشفي لمولاتي عما سيتم في الأمر المعروف، ولو استطعت أن تساعديها على استرداد حقها المسلوب.

وفرشت العرافة رملها، ونفثت في خرزاتها، وتمتمت بتعويذاتها، ثم بدا عليها الأسى والاضطراب. وكانت الأميرة ووصيفاتها قد كتمن أنفاسهن في انتظار كلماتها... فلما طال بها الصمت، قالت الأميرة في غضت تخفيه:

-مالك هكذا صامتة؟ قولي ماينبئك به الرمل. كأنما مايكون.

قال العرافة:

–رملي يقول ياأميرة. إن الأمور صعبة خطيرة. وإنما الساحرة الكبيرة هي التي على علاجها قديرة.

–وإن تلك الساحرة الكبيرة؟

قالت العرافة:

–بين الظلام والرمال. مسكنها في هذه الجبال. فإن أردت كنت القائــدة. الليلــة لاتضيع الفائدة.

قالت الأميرة:

–إنا تحت أمرك فاصنعي ماتريدين!

وقبل أن تتوارى الشمس كانت امرأتان ترتديان لباس الرعاة وتمتطيان حمارين وتنطلقان من باب للمدينة المواجه للصحراء، قبل أن تغرب الشمس فتغلق الأبــواب، ولايسمح الحراس لأحد بالدخول أو الخروج، حتى تطلع الشمس من جديد. ووجــدت الأميرة في نفسها شيئاً تمن التردد، ولكن نظرة منها إلى الزينات التــي كــادت تــتم، والأنوار التي بدأت توقد، بعثت في جسمها هزة، وفي نفسها ثورة وملأت قلبها بالغيظ الفائر، والحقد الثائر، والنقمة تود لو تصبها على كل مافي المدينة. فاندفعت بلا تردد.

وانطلقت العرافة والأميرة تجدان السير حتى اجتازتا حدود الوادي، فخرجتا إلى الفضاء العريض في الصحراء؛ ولم يكن القمر قد بزع بعد، فأحست الأميرة بقشعريرة الخوف من الظلام الضارب في الآفاق، وهمت أن تكثر عائدة إلى المدينــة لــولا أن عاودتها صورة الزينات والأنوار، وخيالات والملك والفتاة، ففار الدم فــي عروقهــا

وامتلأت عزيمة وإقداماً، ولم يكن هما في هذه اللحظة أن تحول دون هـذا الـزواج فحسب، بل ودت لو تحرق غريمتها ولو حرقت حبيبها أيضاً.

ولم يبلث القمر أن أطل على الصحراء المترامية الأطراف، فغمرهـا بـضوئه الفضي الشفيف، وخيم على الكون كله ذلك الصمت الساحر الذي يبسطه القمر علـى الأكوان، فسبحت الأميرة في أحلام غامضة، لاتتبين فيها إلا أطيافاً متراقطة مبهمـة السمات؛ ولم يكن هناك صوت ولا نأمة إلا وقع حوافر الحمارين في الرمال، ومالبث هذا الوقع أن غمره السكون الشامل، فإذا هو نغمة رتيبة منسجمة في موسيقى الضوء والفضاء، فهدأت فورة نفسها، وغمرها شعور هادئ، وبعدت عـن خيالهـا صـورة المدينة، وغابت في الرؤى الغامضة التي تتراءى ولاتبين.

وبعد مسيرة ساعتين أدرك الأميرة التعب من مركبها الذي لم تعتده، فهمـت أن تسأ ل العرافة: إلى متى نحن نسير؟ ولكن هذه فتحت فمها لأول مرة تقول:

–ترجلي يامولاتي فقد دخلنا وادي الشياطين.

وقفّ شعر الأميرة وهي تسمع هذه الكلمات المرعبة، وهمت أن تصرخ، لـولا أن أشارت إليها العرافة قائلة: حذار أن تفسدي كل شيء، وأن تهلكينا جميعاً.

وترجلت الأميرة كما صنعت العرافة التي قيدت الحمارين، ربطتهما إلى صخرة نائية، ثم أخذت بيد الأميرة تقودها في شعب ضيق، لايكاد يتسع لهما في المسير.

وظلت العرافة تتمتم بكلمات غير مفهومة، وتـشير بيـديها إشـارات غريبـة، والأميرة صامة قد استسلمت للقدر، بعد أن لم يعد يجدي الحذر.

وبعد مسيرة نحو نصف ساعة على الأقدام، لاح للأميرة كهف في نهاية الطريق الضيق، فالتفتت إلى العرافة تستفهم، فأشارت إليها بأنه كهف الساحرة ومن معها من

المردة والجان، وهم رفقاؤها في ذلك المكان! فارتجف كيانها كلــه، وتــسمرت فــي مكانها لاتبرح. ولكن العرافة دفعتها إلى الأمام مشجعة بأنها قد تلــت مــن التعاويــذ والرقي مايضمن لها السلامة.

وبعد خطوات كانتا على باب الكهف الضيق المظلم حيث لايدخله ضوء القمــر، ونظرت الأميرة فرأت على ضوء مجمرة في وسط الكهف، شبحاً يتحرك مكانه حركة خفية، وهمست العرافة في أذها: اتبعيني ولاتخافي.

وسارت الأميرة محنية الظهر خلف العرافة كيلا يصطدم رأسها بالصخر فــي سقف الكهف، فلما صارتا أمام الشبح، نظرت الأميرة فإذا عجوز معروقــة الوجــه، ضامرة الخدين، ناتئة الصدغين، غائرة العينين، منتكثة الشعر، مخيفة النظرات، كأنها إحدى الجنيات فارتجفت الأميرة، ولكن العرافة تقدمت فجثت على ركبتيها، وأخــذت بطرف الثوب الخلق الذي ترتديه الساحرة فلثمته، ثم أخذت من التراب الــذي تحــت قدميها وحثت منه على رأسها، وأشارت إلى الأميرة أن تصنع صنيعها، ففعلت وهــي مأخوذة.

ولما أتمت العرافة هذه المراسيم تناولت صرة كانت قد تسلمتها مــن الأميــرة، فدستها تحت الفروة التي تجلس عليها الساحرة، وقالت:

–قطعنا السهل والجب. إليك في الأمر الجلل.

فقالت الساحرة:

–فات الأوان. فانتظري دورة الزمان...!

ثم أشارت إلى بالجلوس، فجلستا على الأرض والمنجمرة بينهمـا يفـوح منهـا البخور، وهي لاتكف عن التمتمة إلا ريثما تردد هذه الألفاظ المعدودة: فـات الأوان، فانتظري دورة الزمان!

ولما فرغت من التمتمة نظرت إلى الأميرة وقالت:

–ستكونين منذ الليلة شريكتي في الدار. فما عاد لك في المدينـة قـرار. وفـي حشاك الحقد والبغضاء. تحرف سكان الأرض والسماء. ولكن فات الأوان. فـانتظري دورة الزمان.

وصمتت كأنما هذا فصل الخطاب!

وارتج كيان الأميرة كله، وجحظت عيناها من الفـزع، وتحـرك لـسانها فـي اضطراب.

–ولكني أريد ألا يتم هذا الزواج.

قالت الساحرة:

–نفذ المقدور. ووقع المحذور. وفات الأوان. فانتظري دورة الزمان.

قالت الأميرة ــ وقد فارقها الفزع والخوف، وغلا في صدرها الحقد والغيظ:

–أقول لك: أريد أن لايتم هذا الزواج. أريد الانتقام من غريمتي. بل أريد الانتقام منه. بل أريد تحطيم المدينة على من فيها!

قالت الساحرة:

لن يقف في طريقه شيء. فقد انتهى كل شيء.

قالت الأميرة. وهي تجز على أسنانها من الغيظ والحقد والمرارة

–ولكن...

قالت الساحرة:

–ليس هناك لكن، فلم تعد تنفع لكن... انظري واقرئي...

ودست يدها في شق في الصخر، فتناولت ورقة بردي ملفوفة يعلوها التراب وفضتها! ثم قربتها من عيني الأميرة، فتطلعت إليها هنيهة، ثم ردتها إليها وهي تقول.

–تلك خطوط ورموز، ولا علم لي بالخطوط والرموز.

قال الساحرة: إذن فاسمعي وأنصتي، وإذا عرفت فاسكتي:

–"يتوج الملك تاسو، من فتاة الغابة ساسو. أما الخطيبة الأميرة، فترتد ساحرة شريرة، تسكن الصخر والرمال، بين السماء والجبال. فإذا آن الأوان، وتعين الزمان. جاءت إليها فتاة، في مقتبل الحياة، عاشقة مهجورة، كحالة الأميرة، تطلب منها الانتقام، في ساعة الخصام، فينفذ المقدور، ويقع المحذور، وتسحر المدينة، فتشفى الضغينة!... شاهت الوجوه. شاهت الوجه. شاهت الوجود".

وبينما الأميرة تستمع والساحرة تتلو، والبخور يتصاعد، كان وجه الأميرة يربد شيئاً فشيئاً، وسحنتها تنقلب قليلاً قليلاً، وجسمها ينتفض انتفاضة الغيظ، وعيناها تقدحان بالحقد؛ فما أتمت الساحرة قولها، حتى تبدلت تبديلاً غريباً، فغارت عيناها، ونتأ صدغاها، وانتكث شعرها، وبدا في نظراتها الشر، وتحولن من صورة الإنسيات إلى صورة الجنيات، وراحت تردد بصوت مسموع:

–يتزوج الملك تاسو. من فتاة الغابة ساسو. أما الخطيبة الأميرة، فترتد ساحرة شريرة... إلخ. وهي تجثو على رأسها التراب، وترقص رقصات جنونية هستيرية، في هيئة تقشعر لها الأبدان. وماهي إلا لحظة حتى امتلأ المكان بأشباح لاعد لها ولاحصر، تحثو على رأسها التراب، وترقص رقصاتها الهستيرية وتردد معها الكلمات في صوت مبحوح، يثير الرعب والفزع. فما لبثت العرافة أن خرجت راكضة، وهي تتلو التعاويذ، والشعب كله يدوي بعزيف الجان

وادرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح...

***

.... وبينما كان وادي الشياطين، وكهف الساحرة، يدويان بعزيف الجان الحاد المبحوح، وبرقصات الأميرة الهستيرية وخدم الساحرة العفاريت... كانت المدينة تزخر بالزينات والأنوار والجماهير، وتنطلق في جوها الزغاريد والأغاني والأهازيج؛ وقد نسى الشعب الأميرة وقصتها، واندمج في أفراح الملك وفتاة الغابة، وبخاصة بعد أن دعى الجميع إلى موائد الملك في الميادين والطرقات، فأكلوا وشبعوا وانطلقوا يهزجون ويغنون ويرقصون. فإذا بقي منت ذكر الأميرة، فبعض النسوة والفتيات، يذكرنها بالعطف والمودة في مقابل ماذكرن فتاة الغابة بالزراية والغيرة! ولكن التيار يجرفهن، فيشاركن المدينة في أفراحها العظيمة.

أما في داخل القصر فقد كان هناك قلبان يشعان بالبهجة والمرح والحبور، ويرفان بالسعادة والنشاط والتوثب، ويفيضان بالرجاء والثقة والتطلع، ويخفقان بالحب والفتنة والانطلاق: قلب الملك الشاب وقلب الحورية الفاتنة.

وأطل الملك من شرفة القصر على الساحة وبجانبه عروسه، فإذا الساحة الواسعة تموج بالمشاعل والناس والزينات، وإذا الأغاني والأهازيج والهتافات تتعالى

في الجو القريب، وتترامى أصداؤها إلى بعيد، فتلتقي الأصداء المنبعثة من شتى الأرجاء. فأحس العروسان أن الدنيا كلها ترقص وتهزج وتغني، واتصل الهزج الراقص، والنغم الصادح، بالأهازيج والأغاني الشائعة في دمائهما وفي كيانهمنا كله، فاندمجا ــ على البعد ــ في ضجة الجماهير، وهزج الجموع، وتيار الراقصين، ونسيا الملك والقصر، وأوغلا في حلم سعيد مديد... ثم أفاقا فارتدا من الشرفة إلى المخدع، والأصداء المختلطة تنساب في أسماعهما، والرؤى المتراقصة تنبض في خيالهما، حتى إذا انفرد قليلاً غابت الضجة، وانطوت الأصداء، وتفتح لهمنا عالم أوسع وأبهج، يرودانه وحيدين، ويجوبانه فريدين، وتترامى بهما آفاقه إلى أبعد ماتراه الأبصار.

وباتا ليلة ياමولاي، ليست مما تصوره الأقوال، ولكن مما يتملاه الخيال... ثم أصبح الصباح!ثم تلاه إمساء وإصباح والحياة تبسم للعروسين الشابين، والدينا تنبض بقلب العاشقين حتى دار الفلك دورته، وأوفى العام على تمامه... ,كان ليلة همست فيها العروس همسة في أذن العريس، وفي عينيها إغراء وفرح، وفي نبرتها فتنة وإدلال، ووثب الملك وثبة ألقى فيها عن عاتقه كل أعباء الملك وتقاليده، ليرتد بشراً خفيفاً طليقاً؛ وراح يعانقها في فرح ونشوة، ويضمها في انفعال وقوة، وهي ترده عنها في لطف وإغراء...

ومنذ تلك الليلة عادت الملكة تعيش بحساب، وتتحرك بحساب، وأصبح القصر ينتظر البشرى، حين تتم الأيام، وقلبان خافقان لايكفان عن الخفقان!

حتى إذا أوفت الحامل أيامها، وحانت الساعة المنتظرة، امتلأ القصر بالأطباء والكهنة والعرافين، واجتمعت "الدايات" المشهورات وعلى رأسهن "داية" القصر التي تلقت الملك يوم ميلاده؛ وتجمعت الوصائف والجواري في حركة ذاهبة آيبة لإعداد المعدات للقادم الجديد. والملك في قلق يداريه، ولكنه يبدو على الرغم مما يصل إلى سمعه من الأخبار المطمئنة عن حالة الملكة. ولم تعان الوالدة شيئاً من شدائد الوضع،

فقد كان جسمها كله سليماً ناضجاً نامياً. وإن هي إلا فترة حتى أعلن في أرجاء القصر أن أميرة ملكية قد استنشقت أول أنفاسها، وأن الملكة الأم في أتم صحة وأحسن حال، فانطلق البشير ينادي في أرجاء المدينة بالنبأ السعيد، ووفد العظماء والكبـراء علـى القصر يهنئون ويبشرون، ومدت للشعب الموائد وذبحت الذبائح في كل مكان، وانقلبت المدينة تهزج كما صنعت قبل عام؛ وإن تكن المولدة بنتاً وليست بالغلام! لقد كان فرح الملك لايوصف بصحة الأم ونجاتها، ومن فرحه الدافق فاضت المدينة بأفراحها.

وأمر الملك فاجتمع الديوان، وجيء بالكهنة والمنجمين والعرافين، لينظروا فـي طالع الأميرة الوليدة، ويروا نجمها وبرجها، ويدلوا بما يتراءى لهم عن مستقبلها.

وخلا الكهنة إلى هياكلهم، والمنجمون إلى دفاترهم، والعرافون إلى رملهم، ثـم عادوا ليقصوا على الملك ورجال الديوان ماتتبئهم به الأفلاك والطوالع. ولكنهم عادوا يغشاهم الوجوم، ويبدو على وجوههم التهيب. فقالوا ــ وكأنما يدارون شيئاً ــ خيـر بإذن الإله، وسعادة في الحياة ونجاة...

وأوجس الملك في نفسه خيفة، وأحس "حور" كبير وزرائـه ومـشيريه أن وراء الأمر ماوراءه، فحاول أن يشير بإهمال الكهنة والمنجمين والعرافين بضعة أيام حتـى يستوثقوا ــ وذلك إلى أن يدبر الأمر ويعلم السر ــ لولا أن الملك كـان فـي حالـة عصبية، فأمر أن يفضوا بما لديهم حالاً، وألا يخفوا من الأمر شيئاً.

وتقدم كبيرهم فقال:

–إن الطوالع تشير بأن حياة الأميرة الوليدة، ستكون هانئة سعيدة. ولكن يقع في حياتها حادثان. أولهما واضح ظاهر، والآخر غامض مبهم. وليس لنا أن نقول إلا بما نعلم.

فأما الحادث الأول فيقع للأميرة عندما تنضج وتتفتح وهو مرض خطير يحـــار فيه الأطباء، ويعجز عنه العرافون، حتى يجيء من الشمال طبيب، فيـــشير بـــالعلاج الحاسم والدواء اللازم، ويكون فيه الشفاء بعد العناء.

وما الحادث الثاني فيعقب الحادث الأول، ولاتعبر عنه الأرصاد والطوالـــع، إلا بالرموز والإشارات، وآخر ماتكشف لنا: أن الأميرة فيه لن تموت، ولكنها لن تكـــون في الأحياء.

ولاعلم لنا وراء هذا الرمز والإيماء!

وبدأ العجب على وجوه الجميع من هذا الكلام الغامض العجيب، وحسب الملـــك أن المنجمين يخفون عنه مايعلمون من شر يصيب الأميرة خوفاً وحذراً، فقـــال لهـــم: قولوا لي كل شيء ولكم مني الأمان. أما إذا أصررتم علـــى الإنكـــار فلـــم التنكيـــل والعذاب الشديد.

وأقسم الجميع بين يدي الملك أنهم لايعلمون شيئاً غيـــر ماقـــال كبيـــرهم، وأن الطوالع والنجوم لم تفصح لهم عن شيء وراء مارروه، وأن الغيب غيـــب، وعلمهـــم لايتجاوز مدى محدوداً، فإذا شاء الملك أن ينكل بهم فالأمر أمره، ولكنهم لن يزيـــدوا شيئاً على ما قالوه، لأنه ليس لديهم شيء لم يقولوه.

وتدخل حور في الأمر فقال:

–يامولاي إن هم إلا راجمون بالغيب. وقد قالوا مابدا لهم فلندع الأمر للـــسماء، تبدر الأمر بما كتب وراء الغيب.

فسكت الملك، وأشار حول على المجتمعين بالانصراف. قد خيم على الجو رهبة وسكون.

فلما انصرف الجميع، وخلا حور إلى الملك، حاول أن يطمئنه ويبعث إلى قلبه السكنية، ولكنه ظل قلقاً تساوره الأفكار والخيالات، ويحاول أن ينفذ بخياله إلى ماوراء تلك الألغاز:

كيف لاتكون الأميرة ميتة، ثم لاتكون في الأحياء؟ إن هذا إلا حديث مجانين، أو أن هناك أمراً يخفون....

ولكن مرور الأيام، ونمو الأميرة الصغيرة، وصحة الأم، جعلت الملك يطمئن، وإن جعل القلق يساوره بين الحين والحين، فيخبط في الأوهام والظنون.

ومضى الفلك ــ يامولاي ــ يدور، والشعور تعقب الأيام، والسنون تعقب الشهور. والأميرة الصغيرة تنمو وتترعرع كالزهرة الندية الجميلة... ولكن لايؤاخيها أحد، ولايعقبها مولود، كأنها آخر العنقود. وعبثاً ذهبت جهود الأطباء والكهنة في علاج العقم الذي لازم الملكة، فزاد هذا من إعزاز الأميرة الوحيدة، وضاعف المخاوف على حياتها، وظلت النبوءة تعاود الوالدان في خشية وإشفاق، على ماكان يبذله "حور" من محاولات شتى لبث الطمأنينة في قلب الملك. حتى بلغت الأميرة السابعة من عمرها السعيد.

وتفنن رجال القصر ونساؤه في رعاية الأميرة، وإحاطتها بالمباهج ومظاهر التدليل. فللأميرة جناحها الخاص تحت إشراف أخلص الوصائف، وهي تستيقظ في الصباح على نغمات موسيقية رقيقة، تعزف في البهو خارج المخدع، وترتفع شيئاً فشيئاً، مختلطة بزقزقة العصافير في الحديقة، وتغريد البلابل والشحارير في طلعة الصباح، وتقترب من مخدعها قليلاً قليلاً، بينما المباخر والمجامر تؤرج الجو بأريجها المعطر، يتسلل إلى خياشيم الأميرة من الخارج وينعشها في أثناء يقظتها، حتى إذا أحست الوصيفات أن الأميرة قد استيقظت، تقدمت الوصيفة الخاصة، ففتحت باب المخدع لتصبّحها بالخير والسعادة. ثم ينقضي النهار بين اللعب والمراح.

وتكر السنوات والأميرة تنمو وتتفتح، حتى إذا بلغت الرابعة عشر نهد ثـديايها، والتف خصرها، واستدار ردفها، وتوردت وجنتاها، والتمعت نظراتها، ونضج فيهـا الحياء الم خدور، والرحيق المذخور، ذلك الذي تودعه الحياة أنثياتها الفاتنات!

ثم تكر السنوات فتبلغ الثامنة عشرة. ويكون الربيع، حينما تنزل إلـى الحديقـة تقفز وتجري وتسابق الفراشات الزاهية الألوان. وتتوجه من أبيها نظرة إلى ملامحهـا الفاتنة ترده إلى ذكرى بعيدة عزيزة... إنها ملامح فتاة الغابة يوم أن رآها أول مـرة تخطر وكأنها تطير، وتمشي وإنها لتتوثب. يوم أحس أنها إحدى ظبيات الغابة، أيقظها تفتح الربيع.

ويخفق قلبه خفقاناً سريعاً، ويشر إلى فتاته فتدنو منه، فيحتضنها في حنان ظاهر وولع باد، ثم يغمر وجهها في صدره، ويربت عليها في حنان.

وحينما ترفع الفتاة وجهها إلى أبيها تجد دمعة حائرة تترقرق في عينيـه، وهـو يطبع على جبينها قبلة حارة طويلة.

ويروعها منظر الدموع في عينيه، فلم يسبق لها أن رأته يبكي، فترتاع، وتـسأل في لهفة عما ألم به. وعندئذ يفيق فيبسم لها ويهش، ويفصح لها عن سبب اضـطرابه، ومبعث دموعه: أنها دموع الذكرى الحبيبة إلى نفسه. فلقد رأي في ملامحهـا اليـوم ملامح أمها الجميلة يوم كانت في مثل سنها، ويوم التقى بها أول مرة. إنهـا ذكـرى عهد الشباب الذي لايعود!

أما الفتاة فيدركها الوجود لحظة. ولكنها تزهى بهذا الإطراء المستور لجمالهـا، فتنطلق من فيها العذب ضحكة رنانة. وهي تقول في دلال جميل وتخابث بريء:

–إذن أنت تحبها إلى هذا الحد يأبتاه! ولايزال حبكما حياً على مدى الحياة؟

ثم تنطلق راكضة كالظبي المدلل وهي تقول:

–سأذهب حالاً لأفشي لها هذا السر الخطير!!!

وأبوها يتابع بنظرة وقلبه خطواتها القافزة، وهو غارق في حلم جميل طويل. وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة السابعة قالت:

وكان مساء وكان صباح، وانبعثت النغمات الشجية والنفحات الأريجة، تتسلل إلى مخدع الأميرة كالأحلام، وتوقظها من سباتها في رفق... غير أن الأميرة لم تنتفض من فراشها خفيفة نشيطة ظافرة مرحة، كما تصنع في كل صباح. بل قالت للوصيفة التي بادرتها بالتحية: إنها تحس وعكة خفيفة في هذا الصباح.

وانتشر النبأ في لحظة فملأ أروقة القصر جميعاً، وذهب الرسل إلى الأطباء في قلق ظاهر؛ ولم يكن بد أن يصل النبأ إلى الملك فيذعر له ذعراً شديداً، وتتجسم مخاوفه وتتضخم، على الرغم من كل حديث مطمئن. فها هي ذي النبوءة الأولى تتحقق، وإذن فستلحقها الثانية قريباً.

وتستحيل هذه الوعكة الخفيفة يوماً بعد يوم إلى مرض يشتد ثم يستحيل سقماً، فتذبل الأميرة شيئاً فشيئاً، وتذوى نضارتها قليلاً قليلاً، وتفقد نظراتها ذلك البريق الفاتن، وينضب فيها الرحيق المذخور، بعد مضي الأسابيع والشهور.

ويحاور الأطباء والكهنة والعرافون والمنجمون، وتثقل الأيام على الملـــك، فـــلا يرى إلا قلقاً مهموماً ، وتحاول الملكة ــ على مابها من جزع وألم ــ أن تـــرد إليـــه الطمأنينة، وأن توحي إليه بالصبر فلا تجدي محاولاتها شيئاً. إنه يحب الفتاة حباً قوياةً عميقاً. يحبها مرتين: حبه الأبوي الحنون، وحبه للذكرى العزيزة في خاطره. ذكـــرى فتاة الغابة في عهد الشباب الجميل.

ويستنفذ الوالدان جميع وسائل الطب والعرافة، والفتاة تذوي بين أيديهما وتـــذبل، فلا تبقى نافذة مفتوحة للرجاء إلا أن تتحقق النبوءة على يدي طبيب الشمال!

ويبث حور العيون والأرصاد على كل قادم إلى المدينة من الشمال، عـــسى أن يكون هو الطبيب المنظور حتى يئين الأوان، ويستدير الزمان، فيفذ الطبيب الـــشمالي للبحث عن بعض العقاقير في الغابة، ومايكاد يبدأ البحث حتى يحيط به العـــسس فـــي اهتمام ظاهر، وحتى يدعى إلى قصر الملك فوراً؛ فيذعر ذعراً شديداتً، وينكر صفته وغايته، ويستشفع لديهم بكل عزيز أن يطلقوا سراحه، فلا يسمع من الجميع إلا قولهم: أنت مطلوب الملك. أنت مطلوب الملك.

حتى إذا وصل إلى القصر وقد سبقته الرسل، استقبله حور فطمأنه على حياتـــه، وأنبأه النبأ، ووعد أجمل الوعود، إذا هو رد إلى الأميرة عافيتها، وأعاد إلى المدينـــة طمأنينتها، بعد أن خيم عليها الحزم وشملها الركود عاماً وبعض عام.

عندئذ تعود للطبيب طمأنينته، فيطلب رؤية المريـــضة، ويعـــرف فـــي الحـــال مرضها، ويشير بأن العلاج الوحيد هو هواء الغابة ونسيمها وشمسها وظلالها، فيجب أن تقضي الأميرة فترة من كل يوم في الغابة، تشم هواءها، وتجول فيها حينما تـــسمح صحتها بالتجول. أما في مبدأ الأمر فيكفي أن تجلس أو أن تتمسى قليلاً.

ويهم الطبيب بالاستئذان فلا يؤذن له حتى تظهر نتائج علاجــه، وحتــى يجعــد جزاءه من الإكرام والحفاوة منذ الصباح الباكر تحمل الأميرة في محفة وهــي ذاويــة ذابلة لتستنشق نسيم الغابة كما أمر الطبيب، فتحس له نشوة خفيفة تدب فــي كيانهــا ويدب عها البرء والعافية. وتستروح هذه النسمات كأنها تعيد إلى نفسها ذكرى، وتثير في قلبها حنيناً، وترد إليها ماضياً بعيداً. وإن لم تكن قد وطئت هذه الغابة. من قبل أو رأتها إلا من شرفات القصر البعيدة!. وإن هي إلا أيام قلائل حتــى أخــذت تــسترد عافيتها، ويسري الدم في خلاياها، ويدب النشاط في أوصالها، وتــستطيع الرياضــة الهينة، وتقبل عليها في شغف ولذة.

ورأى الملك علائم الصحة تبدو على فتاته الحبيبة فكاد يطير من الفرح، وخلــع على الطبيب وبالغ في إكرامه، وعرض عليه أن يضمه إلى الحاشــية، وأن يجعلــه طبيبه الخاص وطبيب الأميرة فاستجاب للعرض في سرور ورضا وغبطة، إذ جذبته الأميرة الشابة بجاذبيتها التي لاتقاوم، فأصبح يحس أنها ابنته ونبتته، وأن أروع أيامه هي التي يقضيها في خدمتها والسهر على صحتها. وكان في الفتاة ذلك السحر الأخاذ الذي يؤخذ به الكبار والصغار والرجال والنساء، فيما يحسبون إلا وهم مأخوذون بها، مفتونون بسحرها، وكذلك استراح الطبيب إلى جوارها، والتذ صحبتها بعد بضعة أيام.

وقال الطبيب ذات يوم: ياليت الأميرة تقضي أوقاتها جميعــاً فــي الغابــة. إذن لاستردت صحتها بأسرع مما تستردها؛ لأن هواء الغابة هو دواؤها وترياقها. وماسمع الملك هذه الكلمة العابرة حتى أمر ببناء برج في وسط الغابة بداخله قصر صغير يسع الأميرة وحاشيتها وحرسها، ويقوم البرج حوله سياجاً حصيناً؛ وكلف حور أن يشرف على البناء بحيث يتم سريعاً؛ وقال له: وددت ياحور أو أمسي وأصبح فأجــد البــرج قائماً!

وجم حور المهندسين والبنائين والفعلة من أرجاء المملكة وكلفهم أن يفرغوا في مدى شهر واحد من بناء البرج والقصر وإعداده بكل مايلزم من وسائل الراحة. ومامضى الأجل المضروب حتى كان البرج قائماً والقصر مؤثثاً بأفخر الرياش وأوثر الفراش، فلا يفترق عن قصر الملك إلا بأنه أصغر منه حجماً وأحدث منه بناء.

وانتقلت الأميرة وحاشيتها وحرسها وطبيبها معها. وكانت صحتها قد تحسنت وقوتها قد اشتدت. فاقترح الطبيب أن تركب فرساً وتجول في الغابة كيلا يجدها السير الطويل في أرجائها البعيدة. فرغبت الأميرة أن تتزيا بزي فارس، وأن تصحبها كوكبة من الفرسان، وأن تتدرب على ألعاب الفروسية فهي تجد في نفسها ميلاً إليها، وقدرة عليها.

وسرعان مانفذت رغبتها، فإذا بها في الصباح ترتدي ملابس الفرسان، فلا يشك أحد وهي قائمة على الفرس ممشوقة القد، معتدلة الجسم في أنها فارس، وإن كان أثر من الشحوب لايزال في وجنتيها. ومرت الأيام واشتد ساعد الأميرة، ومرنت على ألعاب الفروسية، وعاد إلى وجهها التورد والنضارة، وأخذ جسمها الفتي يمتلئ ويستدير، وتبرز معالم الأنوثة فيه على الرغم من كسوة الفارس التي تخفيه!

ثم أقبل الربيع، ونضج الجو بالدفء اللذيذ، وخدرت أنفاسه بالأريج المعطر، وأحست الفتاة أن في حناياها أشواقاً تائهة لاتعرف لها كنها ولااتجاهاً، واشتاقت إلى كل شيء، وحنت إلى من شيء، واستمعت في ضميرها إلى أصداء غائرة سحيقة، وتنبعث من قرارات غامضة مجهولة، فأرخت لفرسها العنان، وسارعت نص مغمضة، كأنه ثملة نشوانة... وبينما هي تمضي وكوكبة الفرسان خلفها وفيهم طبيبها، إذا هي تنتبه على صوت ناي ينبعث من بعيد، في نغماته شجو وفي ألحانه حنين، فأحست كأنها هذا الصوت صدى لما في نفسها من أشواق وأشجان، فاندفعت تتبع مبعثه، وتتقصى مصدره، وشيئاً فشيئاً أخذت تقرب من مصدر الصوت المسحور،

وإذا بها تخرج إلى منفرج في الغابة ترعى فيه بعض الشياه، وقد جلس على قرب منها فتى من الرعاة مشرق الوجه مملوح البشرة تبدو عليه مظاهر القوة والفتوة، وبجانبه فتاة، وفي فمه ناي، وكأنما هو غائب عن العالم يرسل أنفاسه الحالمة أصداء وأنغاماً من نايه المسحور. فهدأت حركة الخيل وأشارت بالصمت والهدوء كيلا يزعج العازف الحالم، فلقد أدركت لأول وهلة أنه يحلم في أنغامه التائهة حلماً سعيداً بعالم مجهول، لايرتاده وحيداً، فالتي بجانبه شريكته فيه!

ودغدغ حسها هذا الخاطر لحظة، وانطلق خيالها يهوم في تيه مخدور، لم يوقظها منه إلا انقطاع النغم، فقد تنبه الفتى إلى كوكبة الفرسان، فكف عن عزفه المسحور.

وتقدم الفارس من الفتى، فهب هذا واقفاً.

قالت:

-ألعلنا أزعجناك أيها الفتى فكففت عن عزفك الجميل؟

قال:

لاياسيدي. فأنا قد فرغت من عزفي. وإنما نحن نتسلى!

قالت (وألقت إليه بصرة من النقود):

-هل لك في هذه على أن تعيد العزف من جديد؟

قال:

-خل لك نقودك ياسيدي. فلست أعزف مأجوراً.

قالت:

–بلى هي هدية لك لا أجر، جزاء ماأهديت إلينا من عزفك الجميل. وإن شـــئت فزدنا.

وأخذ الفتى نايه بين أصابعه، وراح ينفخ فيه بأنفاسه، فتنبعث منـــه نغمـــات.... ولكنها ليست تلك النغمات الحالمة التي كان يبعثها منذ حين. وعبثاً حـــاول أن يعيـــد أنغامه الأولى، فألقى بالناي جانباً وتوجه إلى الفارس الجميل يقول.

–معذرة. فلست أدري أين ذهبت نغماتي. لكأن هذا ليس نايي الذي أعرفه مـــن سنين؟ فابتسمت مجاملة وقالت:

كلا إنها لنغمات حلوة: ولعلنا نحن الذين أفسدنا عليك لذة اســـتماعها. فحـــسبنا هذا....

وهمت أن تلوي عنان فرسها، وهي تقول:

–لكأني بك تعزف كل يوم هنا؟

قال:

–كثيراً مانرعى أغنامنا في الغابة فنعزف لها... ولنا! ثم انطلقت الكوكبـــة فـــي طريقها تتم جولتها. ولكن الأميرة لم تجد في نفسها ميلاً لإتمامها، فقالت:

–حسبنا اليوم. فأنا في حاجة لأن أرجع سريعاً.

وخشي الطبيب أن يكون قد ألم بها سوء، وقد شاهد اضطرابها الـذي راحـت تخفيه. فلما كانا هفي القصر حاولا أن يستفسر عما بها، فطمأنته على صحتها، وآوت إلى مخدعها سريعاً لم تكن تدري حقاً مابها، ولكنها كانت تحس مـيلاً شـديداً إلـى العزلة. كانت تائهة خدرة كالنشوانة، وكانت في حاجة لأن تغمض عينيها في رفـق، فما تريد أن تنظر شيئاً. وأحست مرة أنها تود لو تبكي، ومرة أنها تود لـو تغنـي. وتمددت على الفراش الوثير ولكنها وجدت في نفسها شـوقاً لأن تحتـضن شـيئاً، فاحتضنت وسادتها برهة ثم ألقتها جانباً، واستوت في فراشها جالسة ثم أخفت وجهها بين يديها، وضغطت على عينيها ضغطاً شديداً. ثم انطلقـت تقهقـه مـن حركاتهـا الغربية. ثم ارتدت إلى مايشيه الوجوم، وهي لاتدري ماأصابها، ولاتعلم مـن أمرهـا شيئاً!

وباتت ليلتها في يقظة ليست هي الأرق، تتخللها فتـرات مـن النـوم المنقطـع المملوء بالأحلام. وعندما أصبح الصباح كانت تحس في روحها نشوة، وتحـس فـي جسدها فتوراً؛ ووجدت في نفسها شوقاً إلى الغابة لم تعهده من قبل على فـرط حبهـا للغابة ومافيها، وأخذت في التجوال كالعادة، ولكن أذنها كانـت مرهفـة للأصـوات والأصداء؛ فما لبثت أن التقطت النغم الغائر المسحور، فيممت نحوه فـي منعرجـات الغاية في همس ولطف؛ ووقفت بعيداً عن مصدره تسمع ولاترى، حتى انتهى العازف من عزفه فبرزت له راكضة بفرسها نحوه. فلما قربت منه نهض الفتى واقفاً محييـاً في احترام بالغ. فقالت في لهجة مرحة مشرقة:

–وهكذا غافلناك وسرقنا أنغامك دون أن تشعر بنا.

خذ هذه هدية اليوم، جزاء ماسرقنا أنغامك الجميلة!

وحاول الفتى أن يرد الصرة للفارس في إباء البدوي الشريف فربـت الفـارس على كتفه وهو يقول:

–لماذا لاتقبل هديتنا الضئيلة، ونحن نستمتع بما هو أثمن وأغلى؟!

وأحست في هذه اليوم براحة هادئة عند عودتها، وزايلها ترددها واضطرابها... وأشرقت في نفسها مطالع مضيئة، وإن لم تأخذ لها وجهة محدودة.

ومضى الحال على هذا المنوال أياماً طويلة توثقت فيها الإلفة بين الفارس والراعي، وأصبح لقاؤهما في كل يوم أمراً مقرراً؛ ولم يعد الفتى الراعي يجفل أو يضطرب لرؤية الفارس وكوكبته، ولم يعد عزفه يفسد ويموت إذا عرف على مرأى منه ومسمع، فالفارس صديقه، وإنه ليهفو إلى هذا الصديق الطيب المرح الجميل، فوق مايهو الصديق إلى الصديق...

لذا لم يجد الفارس صعوبة في إقناع صديقه الراعي ذات يوم بأن يصاحبه في جولته اليومية، وأن كون له فرس في الكوكبة، وأن يدربه به رئيسها على ألعاب الفروسية! ولما احتج بغنمه وفتاته بنت عمه، حلت العقدة بان يقوم مقامه هناك أحد فرسان الكوكبة كل يوم، حتى تنتهي الجولة. وكان هذا فعلاً!

وبعد شهر كان الفتى الراعي قي برع في ألعاب الفروسية جميعاً فقده الممشوق، ووثاقة تركيبه، ومرونة عضلاته، وهوايته لفنه، كل ذلك قد صاغ منه فارساً في فترة قصيرة، وإن لم ينقطع عزفه الجميل كل يوم في فترة من جولاته.

وبينما الفتى مندفع في طريقه، يستطيب عشرة رفيقه، ويستلذ جولاته ونغماته... كان قلب الفتاة الراعية ينذرها بشر غامض من وراء هذه السيرة، فبدأـ تضجر من هذه الرحلة اليومية، وتضيق بهذه الجولة التي تحرمها منه ومن أنغامه... ولم تكن تدري من حقيقة الأمر شيئاً. ولكن الأحاديث تتصل بينهما وبين الفارس الذي يوانسها، وتقرب المسافة بينه وبينها، ويفيض معها في الحديث، فيفضي إليها ذات يوم بالسر

الخطير: إن الفارس الجميل ليس رجلاً. إنما هو الأميرة التي تسكن هذا البرج العالي، وهي ابنة الملك المحبوبة!

لو كان طعنة خنجر لما وخزت الفتاة هذه الوخزة، ولو كانت لدغة عقرب لما غزتها هذه الغزة، ولو كانت قطعة جمر لما حرقتها هذه الحرقة.. ليته يعود اللحظة لتأبى عليه أن يفارقها، ولتتثبت به فلا تدعه مرة أخرى. ولتأخذه وتمضي به ناحية إلى أبعدى مدى... وأنه ليعود فتندفع إلى صدره باكية في حرقة ثائرة، تطوق عنقه بذراعها، وتدفن في صدره وجهها، وهي تشرق بالدمع، فتنشج نشيجاً متقطعاً.

ويبهت الفتى لهذه المفاجأة، ويسأل مرة ومرة ماذا أصابها. فإذا هي استردت أنفاسها راحت تقول في عنف وضغط:

–لن نبقى هنا. لن نأتي هنا أبداً. إنني خائفة عليك وعلينا من هذه الجولات التي لاتنتهي.

ويعجب الفتى لهذا الإصرار، فيقول:

–وأي شيء في أن أتجول ساعة أو ساعتين مع جماعة من الفرسان في الغابة، لي بينهم صديق ودود؟

وهنا يخون الفتاة احتمالها فتندفع صائحة ولولة ونشيج:

–أي صديق تعني؟ إنه ليس فارساً. إنها فتاة. إنها ابنة الملك تتزيا بزي فارس. هكذا علمت وإنني لأخشى عليك وعلينا!

وفوجئ الفتى بهذا التصريح العجيب، وإن أحس له في نفسه طعماَ لذيذاً. وراح يسألها في دهشة يشوبها الارتياح:

-إبنة الملك؟ من قال لك هذا؟

وكأنما تسربت إلى نفس الفتاة حقيقة ماجال في نفسه، فاشتعلت خواطرها، وقالت في لهجة صارمة صارخة عنيفة:

-قلت لك لقد علمت. أخرني الفارس الذي يبقى معي هنا. لقد أراد أن يتحبب إلي فأفضى بهذا السر. أفي حاجة أنت إلى توكيد جديد؟

وانتظرت أن ترى علائم الغيرة التي قصدت إلى إثارتها بذكر تحبب الفارس إليها. ولكنها لم تلمح أثراً لهذا الخاطر في ملامحه، فغاظها ذلك جداً... أما هو فسرح بخواطره لحظة وارتد يهدئ من ورعها:

-وماذا علينا أن تكن فارساً أو فتاة... إنها تمنحنا في كل يوم صرة كهذي!

وأخذت الفتاة منه الصرة، فألقتها بعنف على مد ذراعها وقاتل:

-لانريد المال. فأنا أتوقع من ورائه شراً.

ثم تعلقت به في تهالك وتخاذل، تناشده، والدموع في مآقيها، أن يمضيا منذ اليوم، فلا يعود إلى هذا المكان أبداً.

ولكنه أخذ يهدئ روعها ويطمئنها ويزيل مخاوفها، حتى هدأت ثائرتها، وعاودها هدوؤها، وإن لم تسترجع طمأنينتها.

وكرت الأيام على هذا المنوال، والصداقة تزداد كل يوم وثوقاً، وقد أخذت نظرات الفتى الراعي إلى صديقه الفارس تشع بريقاً جديداً، ونبراته ونغماته تزداد حرارة واتقاداً، وكثيراً ماكانا ينفردان عن الكوكبة لحظات، فيحس كلاهما شوقاً جارفاً لأن يحتضن رفيقه، وترخم نبراتهما في هذه اللحظة، وتشع نظراتهما حنيناً.

ولكن لا الفتى بقادر على أن يدنو خطوة، ولا الأميرة بقادرة على أن تكـشف القنـاع للراعي !. أما الفتاة فكانت تتلظى على الجمر، وتذرف سخين الدمع، وتظـل حـائرة اللب مولهة القلب، حتى يعود إليها الفتى، فتحاول في كل يوم محاولتها الأولى،ـ حتى كادت تيئس، فركنت إلى دموعها وهمومها، وهي تذبل في كل يوم وتذوي.

ودار الفلك دورته فأكمل عاماً جديداً. وعندئذ أخذ يستيقظ في خاطر الملك شبح النبوءة القديمة، وتدب في نفسه عوامل الخوف والقلق، ويرى في حياة الأميرة بالغابة بعيدة عن القصر الملكي خطراً قد يمهد للنبوءة؛ ولم يعد هناك مايدعو إلى بقائها هناك بعد أن كمل شفاؤها، واستردت عافيتها. وحينما وجد من "حور" ومن طبيب الأميـرة موافقة على آرائه، أصدر أمره الذي لايرد بعودة الأميرة إلى جناحها في قصر أبيها، وبانتهاء عهد الغابة وجولاتها. وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة الثامنة قالت:

كان الصباح التالي ـ يامولاي ـ مفرق الطريق بين عهدين للأميـرة وللملـك وللملكة جميعاً... لقد صبّح المدينة عدو مغير من الشمال، فاجأ الحاميـات المبعثـرة فقضى عليها، وتدفق في المدينة تدفقاً، فخرج الفرسان للقتال والدفاع. وعندئذ لم يبـق مجال لتوسلات الأميرة ورجائها، فلقد ذعرت حينا علمت بقرار أبيها، ولكنهـا لـم تيئس من رجعته عنه لما تعلمه من إعزازه لها وتدليله إياها. ولكن هذا الحادث الـذي صبّح المدينة قطع الطريق على كل قول، وزحم المجال على رجاء، فلم يعـد هنـاك موضع إلا للحرب التي تهدد الجميع، ولم تعد الغابة مجال رياضة ومراد نزهة إنمـا هي مكان للقتل والقتال، ولقعقعة السيوف وتكسر النصال.

أما الفتى الراعي فلم تعد تعلم عنه شيئاً، وما عاد هو يعلم أين ذهبت، فالحرب دائرة بأقصى سرعتها، والجيش المغير يستغل المفاجأة إلى نهايتها، والجميع في كرب وهم، اللهم إلا قلباً واحداً نزلت عليه هذه الحرب برداً وسلاماً، وطمأنينة وأمناً. ذلك قلب الفتاة الراعية التي استردت منذ اليوم حبيبها وخطيبها!

ودارت رحى الحرب أياماً، وفوارس المدينة يدافعون كالأبطال عن مدينتهم المهددة ومملكتهم المحطمة، ولكن المفاجأة الأولى جعلت للمغيرين الكفة الراجحة؛ وكلما مضى يوم بانت الغلبة في صفهم والهزيمة في صف المدافعين؛ فما انقضت عشرة أيام حتى اضطر هؤلاء إلى التقهقر والاحتماء بأسوار المدينة بعد تغليق أبوابها؛ وضرب المغيرون الحصار عليها، وعادت الحرب تراشقاً بالسهام والنبال، حيثما أتيحت للفريقين فرصة وغفلة.

ولكن هذه الحال قد طالت على المدينة فامتنعت عنها الأقوات وأصبحت مهددة بالجوع إذ نفذ منها المخزون، فعم الكرب، وزاد الهم، وبات الملك ورجاله في أسوأ حال... إلا أن خاطراً واحداً كان يعزيه بعض العزاء: لقد ألهم إلهاماً أن ينهي حياة الأميرة في الغابة قبل الغارة بليلة واحدة؛ ولو تأخر لذهبت أسيرة في قبضة المغيرين، ولتحققت النبوة كاملة، فالأسر هو الحياة التي لاحياة فيها، وهو الموت الذي لاموت فيه "لن تكون ميتة ولكنها لن تكون في الأحياء". تلك هي النبوءة المحيرة تتكشف اليوم عن بديهة ظاهرة. حياة الأسر هي هذه الحياة، بلا جدال. ولقد نجت منها الأميرة، إلا أن تتحطم الأسوار، أو أن يرغمهم الجوع على الاستئسار!

وعندما وصل في تفكيره إلى هذا الحد اضطرب فؤاده من الخوف والقلق فما الذي يمنع أن تتحقق النبوءة التي صارت واضحة مكشوفة، مادام الحصار قائماً والمدينة مهددة؟ وفي حرارة القلق أمر أن ينادى في المدينة وأن يهتف على أسوارها:

-من استطاع أن يرد العدو المغير، وينقذ المدينة من الدمار، فله على ذلك مكافأة نادرة: سيتزوج بنت الملك، ويصبح ولياً للعهد.

وانطلق المنادون يتصايحون في المدينة بهذا النداء، ويرفعون عقيرتهم فوق الأسوار ليسمعهم من في خارج المدينة من أهل المملكة القريبين.

ومضت ثلاثة أيام لم يتقدم أحد لينال هذا الفوز الذي كان يبدو حلماً من الأحلام، حتى يئس الملك من الفرج، وكاد يأمر بفتح الأبواب، ولكن شمس اليوم الرابع أشرقت، وإذا بشاب يتقدم إلى الملك يقول:

-أنا يامولاي أتعهد بكسر الأعداء!

لم يكن ذلك إلا الفتى الراعي، وقد سمع النداء من أسوار المدينة، وكان فراق الأميرة وانقطاعها قد كاد يجنه، فظل يبحث ويسأل حتى علم بعودتها إلى قصر أبيها، فانقطع كل رجاء له فيها وتمزق قلبه من الحسرة، ثم ركن أخيراً إلى اليأس، حتى سمع المنادي، فخفق له قلبه خفقة شديدة، واعتزم أن يكون أو يفوز بما لم يخطر له في الأحلام، وظل يحتال ثلاثة أيام ليدخل المدينة حتى سمح له الحراس بالدخول بعد أن استوثقوا من غايته، وجاءوا به إلى الملك ليعرض عليه حاجته! وسر الملك سروراً عظيماً بوجود هذا الشاب الشجاع، ولكنه قال له:

-من أين لك أن تحاربهم وأنت وحيد، فهل نجهز لك جيشاً ممن بقى من المدافعين؟

قال الفتى:

-لايامولاي. لا أريد معي أحداً إلا الكوكبة التي كان تحرس الأميرة في الغابة، ففيها البركة والكفاية!

ولما كانت هذه هي الفرصة الأخيرة أمام الملك، فقد أجاب طلبه، ودعا له ولجماعته بالنصر المؤزر، وارتفعت أكف الجميع بالدعاء، وتعالت أصواتهم بالهتاف، وهم يشيعونهم إلى الأبواب.

وانطلق الفتى ــ ياموﻻي ــ بجماعته الصغيرة، وقلبه يطفح بشراً، ونفسه واثقة من الغلبة، فهو يندفع بألف عزم وعزم ويخيل إليه أن في مكنته دك الجبال، وتبدل الأحوال.

وسرى هذا الشعور إلى نفوس رفاقه، فانقلبوا أسوداً هائجة تذود عن العرين المهدد، فلما ترامى إلى المغيرين نبأ هذه الكوكبة الصغيرة الخارجة لقتالهم هزئوا وسخروا، وأقبلوا عليهم غير مكترثين بهم يحسبونهم صيداً سهلاً.

ولكن لم تمض دقائق حتى علموا: أي أبطال يقاتلون. فلقد تصرع منهم عشرات الفرسان في الميدان، فأفاقوا وبدءوا ينظرون إلى خصومهم القلائل نظرة جديدة، ويحملون عليهم حملة صادقة... ولكن الفتى راح يصول ويجول ويصرخ ويهدر، ويقتل ويجندل، والغبار الثائر والمعركة فائرة، حتى أطاح منهم الرؤوس وشتت الجموع، وألقى الرعب في القلوب، وهو يهدر في ثورة واندفاع، وكأنما هو غائب عن الوجود... حتى أقبل الليل فتناجز الفريقان، وعاد الفتى بفرسانه إلى المدينة لم يتخلف منهم سوى اثنين صرعا في الميدان؛ فاستقبلته المدينة كلها بالفرح إذ كان المراقبون على الأسوار يراقبون المعركة ويعلمون الملك بسيرها طول النهار. فلما لقيه استقبله مرحباً وضمنه إلى صدره مشجعاً.

وأصبح الصباح فبرز الفارس وجماعته، وبرز له من المغيرين شجعانهم فبرز الفارس وجماعته، وبرز له من المغيرين شجعانهم وفرسانهم، فما زال يكرر وقائع اليوم الأول ويزيد حتى أوشك المغيرون على الهزيمة. لولا تشددهم بكثرة العدد وخوف الفضيحة. فما أمسى المساء حتى بادروا بالاحتجاز.

وكان يوم ثالث ورابع وخامس، ثم رجحت الكفة نهائياً ونوى المغيرون الفرار، فتماسكوا حتى جن الليل، ثم أقلعوا مولين الأدبار. فما أصبح الصباح حتى كانوا قد أبعدوا إلى الشمال، فانطلقت في المدينة الزغاريد، وعلت الأهازيج، وراح أهل المدينة يتعانقون في الطرقات، ويتبادلون التهاني في بشر وانشراح

ولم يبق إلا أن يفي الملك بما وعد، وأن ينال الفتى حلمه البعيد واستقرر الرأي على أن يتم ذلك بعد ثلاثة أيام، وأن يهيأ استقبال حافل رائع للبطل المنقذ، فيبيت هذه الليالي خارج المدينة حتى تأخذ زينتها وتستعد لاستقباله، فإذا كان اليوم الرابع دخلها مع طلعة الشمس كما دخلها أول مرة، حيث يذهب إلى القصر الملكي فتستقبله كذلك الأميرة.

ومضى الفتى يحلم ــ يامولاي ــ حلمه السعيد البعيد، ومضت المدينة تتهيأ لاستقباله، والأميرة تكاد تطير من الفرح بعريسها البطل، وبحبيبها القديم. ولم يحس الجميع أن هناك قلباً يتمزق ونفساً تحترق، وأن هناك إنسانة تحس لذع الجمر ولدغة الأفعى وعذاب الجحيم.

تلك الفتاة الراعية ــ يامولاي ــ التي كانت مولعة بابن عمها الراعي، والتي أمست وأصبحت فإذا آمالها التي عاشت بها، وأحلامها التي داعبتها، وحياتها كلها التي أقامتها، تتحطم وتتناثر في عنف وقسوة دون أن يشعر بها أحد من الناس، فالجميع منصرفون إلى الاستعداد لليوم العظيم الذي سيقضي عليها القضاء الأخير....

ماذا تصنع وهي وحيدة فريدة أمام التيار الجارف الذي لايحس بوجودها، ولايعنى بآمالها، ولايفكر فيها أقل تكفير تصرح؟ تولول؟ تنطلق كالمجنونة تنادي في كل مكان: أيها الناس اسمعوا. إن هنا مخلوقة آدمية تدوسونها كالنمال... ولكن مافائدة هذا كله، ولن يسمع لها أحد ولن ينظر إليها أحد، وصوتها مهماً علا سيغرق في ضجة الهزج والهتاف!

أو مضت في خاطرها فكرة كما تومض الشعلة المضيئة من بعد:

إن الموقف العصيب ليس له إلا شخصية واحدة تسيطر عليه وترد تياره الرهيب.

الساحرة! تيتي. ربة ا لشعاب والوهاد. ومسخرة المردة والشياطين... تيتي هي التي توقف هذا التيار.

وراحت تنبش في أرض الكوخ فتستخرج الصرة بعد الصرة فلقد كان لها من تلك الصرر نصيب، حينما كان الفتي يلهيها بالذهب عن الخطر المحيق.

وقبل أن يخيم على الصحراء الظلام، كانت فتاة وحيدة تركض مدفوعة بقوة رهيبة، لاتهاب الليل الزاحف، ولا الأشباح في الجبال.

ودخلت الفتاة الشِّعب وقد خيم الظلام، فانطلقت تجري، وقد خامرها الرعب وهز كيانها الخوف، ولكنها تجري وتجري حتى تصل إلى الكهف، فترتمي إليه لاهثة آيسة من النجاة، ويقع نظرها على الساحرة العجوز فتفزع وترتاع، وتبادر بإلقاء صرر النقود وهي تلهث في ارتياع.

وفتحت الساحرة فمها فانطلق منه فحيح مبحوح:

–من القادمة في الظلام. بلا سلام ولا كلام؟

قالت الفتاة وهي ترتعش:

–فتاة مسكينة هجرها الحبيب وخانها الزمان. جاءت إليك تطلب رد حبيبها إليها، والانتقام ممن بغوا عليها.

عندئذ قهقهت العجوز قهقهة فظيعة كأنها عزيف الجان، وقالت للفتاة المسكينة:

–خذي نقودك فما بي إليها حاجة. اليوم يومي فاتركي اللجاجة. هيا اتبعيني إلى المدينة، أيتها المهجورة المسكينة.

ثم أخذت تحجل وترقص وتردد: آن الأوان، ودار الزمان ثم صرخت صـــرخة منكرة رهيبة مديدة:

الانتقام. وانطلقت تعدو والفتاة وراءها حتى صارتا على أبواب المدينة.

وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة التاسعة قالت:

كانت الشمس ــ ياموlاي ــ قد آذنت بالشروق حينما وصلت الـــساحرة تيتـــي ومعها الفتاة الراعية ، فانتحت الساحرة جانباً، وأوقدت النار في مجموعـــة صـــغيرة، وألقت فيها البخور، وأخذت تتلو التعاويذ، وقد بدا علـــى ملامحهـــا فـــرح وحـــشي، وجحظت عيناها الغائرتان، وانتفضت جوارحها في حركات تشنجية، والفتـــاة واقفـــة خلفها يديها في انتظار المعجزة التي ترد إليها حبيبها، كما قالت لها الساحرة.

وكانت المدينة تتهيأ من الداخل لاستقبال البطل الذي أنقذها، واستقبال الأفـــراح التي تنتظرها، وكان القصر الملكي يستعد لاستقبال المنقذ العريس. أما الأميرة فكانت قد قضت شطراً طويلاً من الليل ساهرة ترتقب مطلع الصبح البهيج، ذلك الصبح الذي تلتقي فيه يقظة الدنيا بيقظة قلبها المتفتح، والذي يسجل دورة من دورات الفلك عادية، ويسجل في حياتها بدء عهد سعيد. فلما امتد بها الليل، وأوشك الفجر، أخذتها سنة من النوم فراحت في سبات، وانثالت الرؤى على خاطرها انثيالاً، وكلهـــا نـــاعم وضـــئ شفيف. فلما قارب الموعد انبعثت النغمات الرقيقة، وتـــسلل الأرج الـــذكي، وتمـــشت

الخطوات الهامسة في البهو خارج مخدعها، وتقدمت الوصيفة تفتح الباب لتحييها تحية الصباح. وكانت الأميرة قد استيقظت على النغمات الهامسة، والنفحات الأريجية، فهمت تعتدل ولم تستو جالسة بعد في الفراش.

وفي هذه اللحظة كان الفارس قد قارب سور المدينة، وهو يمرق بفرسه في لهفة، وكأنه يطير من فوقها وهي تطير. وقبيل أن ينبعث أول خيط من خيوط الشمس كان الحراس قد تأهبوا لتفح البوابة الكبيرة، ووقف الحرس خلفها استعداداً لتحية البطل الفاتح قاهر الأعداء، وعريس الأميرة، وولي العهد منذ الصباح. فلما أشع أول خيط ذهبي أخذوا في دفع البوابة الكبيرة.

في هذه اللحظة كانت الساحرة قد انتهت من التمتمة، وقد انعقد دخان البخور في الجور، وتلوي فوق المجمرة كأذرع الأخطبوط. وهنا انبعث من فمها الأدرد صيحة مرعبة كادت الفتاة تصعق لها من الذعر، ولم تكن إلا هذه الكلمات وهي تشير بيدها إلى المدينة:

وقف الزمن. جمدت الحياة. وقف الزمن. جمدت الحياة.

ونظرت الفتاة إلى حيث تشير الساحرة، فإذا الحراس الذي يفتحون البوابة قد جمدوا في أماكنهم واستحالوا تماثيل والبوابة في أيديهم قد وقفت في منتصف الفتحة حيث كانت عندما أرسلت الساحرة صيحتها العجيبة.

وذهلت الفتاة لحظة، فما انتهت إلا والساحرة تقهقه كالشيطان، في فرح جنوني بشع، وهي تقول:

–سحرت المدينة. سحرت المدينة. شفيت الضغينة. شفيت الضغينة.

ولم يستغرق ذلك كله إلا مدى خطوات الفارس السريعة... فلما كان بقرب الباب برزت له ابنة عمه، وقد أفاقت، فاعرضت سبيله وزعقت في وجهه ليسمع:

-كل شيء قد انتهى. وقف الزمن. سحرت المدينة. كل من فيها تماثيل. انظر للحراس. إنهم جامدون ـــ وهو في سرعته الخاطفة ـــ لم يسمع إلا قليلا، وكاد يدوس الفتاة التي اعترضته لولا لفتة سريعة لعنان الفرس، فتفاداها وانطلق في سبيله، فدخل البوابة ركضاً. ولكن البوابة لاتتم فتحتها، وأيدي الحراس جامدة عليها، وهيئتهم وهم يدفعونها، وقد مالوا بوجوههم وأيديهم إلى الأمام في عنف، وأرجلهم مثبتة في الأرض، وقد انفرجت اليمنى عن اليسرى. وهاهم أولاء رجال الحرس المهيأ لتحيته. إنهم واقفون وقفة عسكرية في استعداد للتحية، ولكنهم جامدون.

ورن في أذنه صوت الفتاة، فاستعاد ماالتقطته أذنه من ألفاظها، وبدأ يفيق قليلاً، ولكنه يمضي في المدينة ويمضي، فماذا يرى؟

رجال جامدون على هيئتهم: هذا يفتح باب داره من الداخل ويخطو برجله اليمني ثم يقف جامداً والباب موارب. وهذا بائع وضع المفتاح في قبل دكانه وأخذ يديره ثم جمد على هيأته، وهاذ فتح باب الدكان وهم بالدخول. وهذا فلاح يسوق ماشيته وهو والماشية قد جمدوا في وسط الطريق. وهذه إمرأة تطل من النافذة وقد بقيت على هيئتها... وهكذا من مئات الصور والأوضاع والحركات...

وحسب نفسه في حلم مزعج، فنزل عن صهوة الفرس، وراح يلمس هذه التماثيل الآدمية في توجس وخيفة، ثم يهزها، ثم يصرخ في وجهها، ولا من يسمع أو يجيب. ولكنه سار في طريقه إلى القصر، وهل يمكن أن يكون قد مس القصر مامس المدينة؟

ووجد أبواب القصر تفتح والحراس متهيئين للاستقبال. ولكن وا أسفاه! إنهم تماثيل. وارتجف قلبه رجفة شديدة.... واندفع يهز الحراس ويصرخ في وجوههم

صرخات جنونية... ولكن ماذا؟ ليكن الجميع قد سحروا وجمدوا. أما هي هـي التي تنبض بالحياة والإشراق، فلن يسمها السحر أبدا... واندفع يركض، ويقفز السلم صعداً في وثبات سريعة. ويتلفت هنا وهناك في الغرف والأبهاء: فهذا هو الملك في طريقه إلى المائدة ولكنه جامد على خطوته، وهذه هي الملكة خارجة من الحمام، ثم انتهت خطواتها في الطريق، وهؤلاء هن الوصائف والخدم في حركات الصباح، والجميع على هيئتهم الأولى... وزاد جنونه وهو يبحث عن مخدع الأميرة،ـ وكلما لقيه تمثال جامد زاده اضطراباً وفزعاً ولهفة.

ثم هاهو ذا يجد حجرة الأميرة والوصيفة ببابها: رجل في رجـل فـي الـداخل وأخرى في الخارج، فيمر الفتى من جانبها، ثم ينظر إلى فتاته... يا الله، إنهـا حيـة! هاهي ذي تهم بالجلوس في فراشها، وقد أشرأب عنقها الجميل، وافتر ثغرها الفـاتن عن ابتسامة وضيئة، وهاتان العينان، إن فيهما لاستبشاراً وحلماً!

وانتفضت كل درة فيه، وهو يندفع إليها في جنون ولهفة فيعانقها ويـصيح: هـا أنت ذي وحدك التي نجوت في المدينة!

وصعق صعقة شديدة وهو يلمس الجسد البارد، ويحس التمثال الهامد. وندت من فيه صيحة جنونية وانطلق من الغرفة عدواً يفزر السلم قفزاً، ويجري إلى حيـث قـد ترك فرسه. فيقفز على ظهرها، وينطلق إلى خارج المدينة، ورمحه مشرع في يـده، وقد انتفخت أوداجه، وامتلأت عيناه بالدم، وجز على أسنانه في غيظ، وفارقتـه كـل خالجة إنسانية، فانقلب وحشاً هائجاً مجنوناً.

وحينا برز من البوابة لمحته ابنة عمه التي كانت واقفة بجوار الساحرة تنتظـر أوبته، وقد أحست أنها استردته... لمحته فرأت الشر في عينيه فأسرعت تتواري. وإن هي إلا لحظة حتى كان قد حاذى الساحرة، وفي اندفاع عنيف أعمـد الـرمح فـي صدرها، فخرج يلمع من ظهرها، وهو يضرس على أنيابه قائلاً: فعلتها أيها الشيطانة!

ونطقت العجوز في صوت متقطع:

–لو أمهلتني لأطلعتك على السر...!

وكاد يجن فنزل من فوق الفرس وأخذ يهزها في عنف وهو يصرخ:

–قولي. قولي أيتها الشيطانة. قولي.

والساحرة تردد:

الماء . الماء . الماء

فقفز إلى ظهر فرسه وأركضها ركضاً شديدً

وماكاد يتوارى حتى برزت الفتاة والساحرة تحشرج.

وخافت الفتاة أن تفصح للشباب عن السر، فإذا بها تمد يدها إلى وسطها فتستل منه خنجراً، تغمده في عنف الساحرة.

وفيما هي تلفظ أنفاسها الأخيرة، نطقت في نبرات متقطعة لاهثة:

عقد السحر على حقد كظيم. ويفك السحر على حب عظيم.

وحينما عاد الفتى يحمل إناء الماء، كان كل شيء قد انتهى فوق أمام الجثة مذهولاً.

وقف أمامها لحظات، ثم اندفع نحو المدينة كرة أخرى. يصرح صرخات مجنونة تشبه العواء، فلا يجيب صرخاته إلا الصدى، يرن في جنبات المدينة المسحورة.

وظل الفتى ــ يامولاي ــ أياماً يجول في المدينة ويصعد القصر، ويدخل المخدع، عسى أن تقع المعجزة فيبطل السحر. ولكن هيهات.

وساءت حالته فامتنع عن الطعام والشراب، وهام في الغابة كالوحش الذاهل، يجول في منعرجاتها، ومنفسحاتها، ويصعد البرج القائم فيها. ثم يرتد إلى المدينة، فيظل يصرخ في جنباتها صرخات مذعورة إلى أن يدركه الإعياء، فينطرح على الأرض حيثما اتفق: في الطريق، أو على عتبة دار، أو في منعرج من الغابة. والفتاة تتبعه حيثما ذهب، وتلمحه عن كثب، خيفة أن تفترسه الوحوش، أو يموت من الجوع. وفي لحظات ذهوله تجرعه جرعة ماء، أو تدس في فمه لقمة أو ثمرة فاكهة، حتى لايقتله الظمأ والطوى.

وظل على هذه الحال أياماً طويلة والفتاة الوفية المحبة تتبعه كظله، حتى أفاق من غاشيته، وسرى اليأس إلى قلبه، وعلم أنه كان حلم وانتهى كما تنتهي الأحلام، فعاد إلى حبيبته الأولى ولاحظ ذات يوم أن الزمن في المدينة لايتغير، فهو أبداً مطلع صبح. وعندئذ أدرك مع ابنة عمه معنى قول الساحرة العجوز:

وقف الزمن. جمدت الحياة.

وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

***

فلما كانت الليلة العاشرة قالت:

منذ هذا الوقت ــ يامولاي ــ استحالت المدينة المسحور أعجوبة الزمان، وقصة كل لسان، وتناقل الركبان أخبارها، فوفد عليها الناس من مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون هذه العجيبة الغريبة، ويتذاكرون حوادثها القريبة والبعيدة. وكان أعجب شيء

فيها غير التماثيل الآدمية الجامدة. ذلك الوقت الذي لايتغير ليلاً ولانهاراً. صيفاً ولاشتاءاً، فهو دائماً مطلع صبح، حينما ترسل الشمس أول خيوطها الذهبية.

ودار الفلك يامولاي ثم دار، وانقرض الجيل الذي شهد الحادثة وتلته أجيال، والمدينة قائمة بكل مافيها ومن فيها، وقد وقف الزمن على بابها بأحداثه وغيره، وتقلباته وأفاعليه، فكل مافيها على حاله، والدنيا من حوله تتغير وتتبدل.

واستحال الزمان، وتغيرت الدول، فدخلت المدينة والإقليم من حولها في المملكة الشمالية، ثم ظلت الممالك الأخرى تندمج حتى صارت مملكة واحدة عظيمة.

أما المدينة المسحورة فقد قام عليها الحراس ينظمون زيارتها للوافدين عليها من مشارق الأرض ومغاربها، والأدلاء يشرحون للزائرين قصتها، ويروون لهم أعاجيبها، جيلاً بعد جيل، حتى اكتملت ألف عام، منذ أو وقف فيها الزمان.

وفي ذات يوم قدم المدينة فيمن يقدمون كل يوم للزيارة شاب مثال بارع. جاء يستلهم الفن الإلهي القائم في التماثيل الآدمية بالمدينة المسحورة.

وطاف بالمدينة شارعاً شارعاً، وبيتاً بيتاً، فراعته هذه المجموعة العجيبة من التماثيل المبثوثة. ووقف مبهوتاً أمام ذلك الغنى الفائض في التنويع الذي لانهاية له. في السجن والملامح، والقسمات والمعاني. فهناك آلاف التماثيل ليس فيها تمثال كتمثال: نساء وفتيات، وشبان وشيوخ، وأولاد وبنات، من كل حجم ولون، ومن كل طابع وشكل. ومئات الحركات، وألوف اللفتات وأشتات لاحصر لها من المعاني الكامنة في السجن، الناطقة في القسمات.

وقف ويستقرئ أشتات المعاني وأشتات الرموز، ويتأمل هذا المتحف الإلهي العظيم، فأحس بالضآلة والصغر في نفسه، وفي فنه، وفي نفوس المثالين أجمعين.

إن جميع مأخرجه مثالو الدنيا مايخرجون، لــن يكــون شــيئاً أمـــام المدينــة المسحورة، وأمام الغنى الوافر في التنويع والتصوير.

ثم دخل القصر، وسار في أبهائه وردهاته، وتأمل في أهله وشخصياته... وقاده الدليل إلى أعظم حجرة فيه: حجرة الأميرة المسحورة....

وماكاد الشاب يلمح الأميرة في وضعها الفني الجميــل، حتــى وقــف أمامهــا مبهوتاً... إن أعظم مثال على هذه الأرض لن يستطيع إخــراج هــذا التمثــال: فــي وضعه. في ملامحه. في قسماته. هذه الانثناءة في ذلك الجسد الفاتن. هذا الصدر في بروزه الناهد. هذا الجيد المشرئب المتطلع. هذا الوجه الذي تفــيض فــسماته بــشراً وسحراً، هذا الثغر الذي يهم بابتسامة ساحرة. هاتان العينان الحالمتان المغرقتان فــي الحلم الوضيء.

وقف الفتي لحظة مبهوتاً، ثم خطا نحو التمثال، وكأنما يخطو في محــراب، ثــم باعد وقارب، والدليل يثرثر من حوله بالقصة العجيبة وهو مستغرق في التمثال، كأنما استحال إلى تمثال!

وظل الدليل ينتهي من القصة ثم يعيدها حتى مل، فصمت وبدا عليه الضيق من هذا الزائر الذي ينظر ببلاهة إلى التمثال ولايزايله، ودخل زائرون آخرون خرجــوا، وهو واقف وقفته الذاهلة... وأخيراً نبهه الدليل في استثقال إلى أن وقت الزيــارة قــد انتهى. فخرج يجر رجليه جراً، وهو يعاود النظر إلى التمثال بين لحظة وأخرى!

منذ ذلك اليوم ــ يامولاي ــ والفتى المثال ينتظر الصبح بفارغ الصبر، لينطلق إلى المدينة المسحورة، ثم لايضيع لحظة واحدة في مشاهدة التماثيل الأخــرى، إنمــا يقصد توة إلى مخدع الأميرة، حيث يقف طوال مدة الزيارة حيالها كالعابــد المتبتــل الذي يتطلع إلى اله!

وتكررت زياراته ولاحظ الحراس والأدلاء أطواره، فلقبوه بالمجنون، وصاروا يتغامزون كلما دخل أو خرج، وهو ذاهل عنهم بالتطلع إلى تمثاله الجميل!

وخيل إليه أنه قد حفظ في مخيلته أدق دقائق التمثال، فآوى إلى مرسمه يحاول أن ينحت تمثالاً مثله، وهو يمني نفسه بالمجد والشهرة والخلود.

وعكف أياماً على تمثاله الصخري حتى أتمه، صورة طبق الأصل من نموذجه. ثم وقف أمامه يراه...

ولكن لم تمض إلا دقائق حتى أهوى بأزميله على التمثال فحطمه تحطيماً وتركه جذاذاً. لقد خيل إليه أن التمثال النموذجي حي، أما تمثاله فميت. فانطلق يعدو إلى التمثال الحي الحبيب. وفي نفسه لهفة وملء روحه اشتياق.

ودخل المخدع، والحراس والأدلاء يتصايحون: لقد عاد المجنون. ولكنه اندفع لايعبأ بل لايسمع. اندفع حتى وقف أمام التمثال، ثم دنا فركع بجواره، ثم قرب فعانق التمثال، مغمض العينين، تائه الحس، موله النفس، وجالت في نفسه أمنية عظمى، جمع فيها نفسه وحسه، حتى رآها حقيقة واقعة لفرط اندماجه فيها:

آه. لو تدب فيها الحياة!...

هنا يامولاي. تمت المعجزة الكبرى. لقد انقض التمثال الجامد حياً؟ والفتى مغمض العينين تائه عن الوجود، وحينما أحس بحرارة الجسد الهامد بين يديه كان لايزال في غيبوبته، يطالع حلمه الذي يغمر نفسه. فما راعه إلا صوت قريب منه وصوت آخر بعيد:

صوت يجاور أذنه: ياالله! كيف قد جئت وأنا لا أدري؟!

وصوت بجوار الباب: رباه! شاب في مخدع الأميرة!

كانت المعجزة قد تمت يامولاي ففي اللحظة التي انقض فيها التمثال الجامد حيا سرت الحياة في القصر والمدينة جميعاً. وكانت الوصيفة القائمة بالباب تنظر فتـــرى الشاب، وهو هو فتاها. (فهو من نسله وهو شبيهه).

وكاد يجن. وهو يبصر المعجزة الكبرى. وجمدت الألفاظ على شفتيه، إلا جملـــة واحدة ظل يرددها ساهماً حالماً مبهوتها:

وقعت المعجزة. وقعت المعجزة.

وعجبت الأميرة: ماباله هكذا مبهوتاً مأخوذاً. وحسبته يذكر معجزة النصر على المغيرين، أو معجزة التقائه بها بعد اليأس والقنوت. فراحت تقول:

وقعت وقعت. ولكن كيف دخلت ها هنا. وأنا لا أدري؟ وماهذه الملابـــس التـــي ترتديها؟ ومالك هكذا مبهوتاً؟

وهو ماض في ترديد الجملة الوحيدة التي يملكها ولما يئست من أن يرد عليهـــا بشيء. قالت:

إذا لم تستطع أن تتكلم فاعزف لي لحن الغابة!

وهمت واقفة فطوقته بذراعيها. فأجفل منها لحظة، ثـــم انـــدفع يـــضمها ضـــماً شديداً...

أما الوصيفة التي راعها ماشاهدت، فقد انطلقت تعدو إلـــى المملكـــة تخبرهـــا. وماكادت تقبل حتى وجدت بعض الحراس يهرعون إلى الملك في ذعر شديد، يعلنون إليه نبأ اقتحام المدينة بمخلوقات كثيرة من أجناس لم يروها من قبل أصلاً!

وكان الذي حصل أن فوجئ المتفرجون بالحياة التي دبت في المدنية في اللحظة الأولى. وفوجئ المبعوثون بهؤلاء الغرباء الذين لم يروهم قد ارتدوا على المدينة، فانثنوا يعملون فيهم أسلحتهم دفاعاً عن مليكهم ومدينتهم. وعم الذعر أولئك الزائرين وهم يرون التماثيل تحيا، وتثخن فيهم جرحاً وقتلاً.

وتعالت الصيحات من كل جانب، وهرب من الزائرين من هرب، وأخذ منهم بعض الأسرى!

وجيء بالأسري أمام الملك، وهم في فزع وذهول، وقيل للملك: هؤلاء بعض المغيرين أما الآخرون ففروا فرراً!

وأخذ الملك في استجوابهم عن بقية الجيش المغير، وكيف خدعوا المدينة وأهلها فهربوا ثم عادوا؟.... وفي خوف يعقد الألسنة وذهول يحير العقول، حاول الساكنين أن يفصحوا عن المعجزة التي وقعت بين أيديهم منذ لحظة. فوقع بيانهم من الملك وحاشيته موقعاً عجيباً وحسبوهم يهزأون بهم، كما ظنوا بعقولهم الظنون...

وكان الخبر العجيب قد ترامى إلى سلطات المملكة من الحراس الذين هربوا ومن الزائرين الذي نجوا، فأقبل الحكام الوزراء والأهالي والعساكر لرؤية المعجزة الكبرى. أما الذين هم داخل المدينة فلم يجل في خاطرهم إلا أن جيوش الأعداء قد هجمت مرة أخرى، ورأوا كثرة الهاجمين أن لا مفر من التسليم!

وكان انتشار الخبر قد هز البلاد هزاً، فوفد الناس من كل جهة، وراحوا يتطلعون في دهش إلى هؤلاء الآدميين الغرباء ولم تمض يامولاي إلا ساعات انطلق الزمن فيها من عقاله حتى بدا على هذه المخلوقات فعل ألف عام، فإذا هم يتهاوون جثثاً هامدة، وعظاماً نخرة، ورفاتاً سحقيقاً. والناس من حولهم في ذهول شديد.

أما الأميرة ــ يامولاي ــ فقد وقف الزمن إزاءها عاجزاً. لقد كانت تحب. وماذا يصنع الزمن ــ يامولاي ــ في قلب يحب؟

النهاية

سيــّد – 1946 م